مجموعة قصصية

سيزيف البابلي

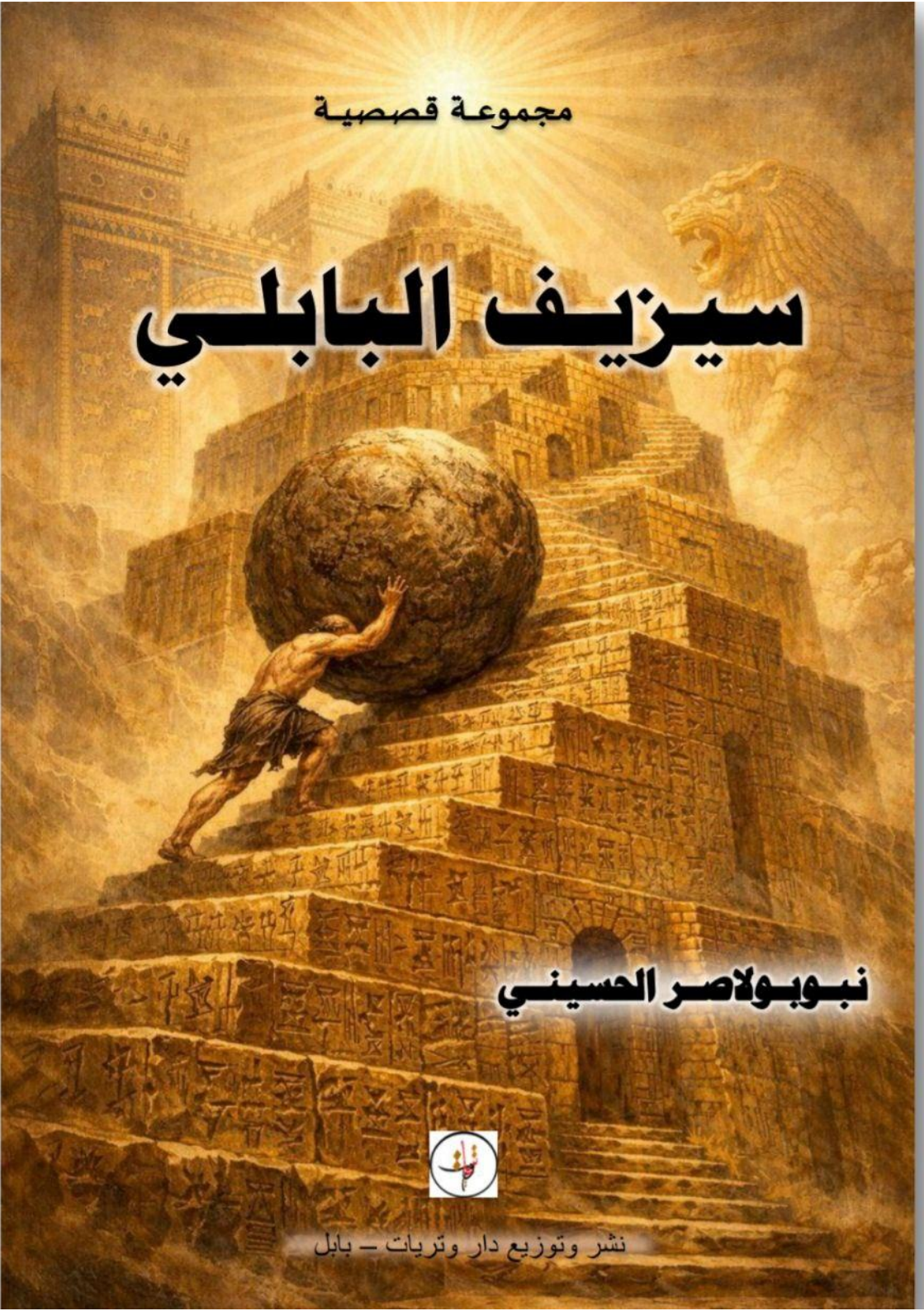

نبوبولاصر الحسيني

نشر وتوزيع دار وتريات – بابل

مجموعة قصصية

سيزيف البابلي

نبوبولاصر الحسيني

هوية الكتاب

٨١٣/٩٠٥٦٣

ح\٥٩٩١ الحسيني/ نبوبولاصر

سيزيف البابلي / نبوبولاصر الحسيني

ط١. بابل داروتريات ، ٢٠٢٥ ،: ٢١ *١٤سم ،

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد (٤٦٦) لعام ٢٠٢٦

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر والمؤلف مقدما.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

نشر وتوزيع دار وتريات – بابل

سيــزيف البابلــي

السمكة الإرهابية ٩
ذات الشعر الطويل ١٥
لا تتزوج عدوك ١٦
لحظة إدراك ٢١
ممارسات زائر المقبرة ٢٣
الحمار سيد الحضيرة ٢٦
مونامور ٣٢
فراشة كلدانية ٣٤
في المطار ٣٦
ديمقراطية كلاب شارعنا ٣٩
الثلاجة المُرعبة ٤٣
آثار بابل لا تنام ٤٥
عندما يكون المجرم بطلا في الجيش الأمريكي ٤٧
عزلة مريم ٥٠
مكاشفة فوق الجسر ٥٣
جفاف عاطفي ٥٥
المحامي المخبول ٥٧
الديك المغدور ٦٠
كفوف كلدانية ٦٢
حين تتحول المستشفى لصومعة كاهن ٦٥

الحيوان لا يصفع أولاده ٦٩
ذيول الكهنة ٧١
النساء يعشقنَّ الوحش سرًا ٧٣
طقوس محرمة ٧٦
جريمة مباحة ٧٨
هدية ثمينة ٨١
تخيلات بعد منتصف الليل ٨٣
محاكمة عمود ٨٥
إبليس يعلن خجله ٨٩
في سجلّ شهداء الكلدان ٩٢
خطة بديلة ٩٤
تكنولوجيا مرعبة ٩٥
طلب محظور ٩٩
لقد أحبَّها دون أن تعلم ١٠١
معنى أن تفقد عزيزا ١٠٤
مرآة الأميرة ١٠٦
وفاء غير مباشر ١١١
مشاعر افتراضية ١١٣
أعتذر يا سيدتي القطة ١١٤
العقم في الضمير وليس بالجهاز التناسلي ١١٧

توبة سفاح ١٢١
"سونالي" فيلسوفة العاهرات ١٢٢
مشتبه به ١٢٩
ذكريات مخيبة ١٣٠
كرستين الكلدانية ١٣١
الزائرة البغيضة ١٤١
تسمم عاطفي ١٤٤
حدث في الباص ١٤٥
من يوميات رجل لاإنجابي ١٤٧
لعنات غرامية ١٥٤
الجار المتشدد ١٥٥
صلاة باطلة ١٥٦
زهايمر مغشوش ١٥٧
طقوس دموية ١٥٨
عجوز مراهق ١٥٩
بعد منتصف الندم ١٦٠
إلى كلدانية (قصيدة شعر) ١٦١

على سبيل الإهداء

لقد كنتِ معي في كلّ ثانيةٍ برغم عزلتي واغترابي خصوصا عند كتابة هذه القصص...العزيزة ماري

السمكة الإرهابية

قلبي ربابةٌ تعصرُ أوتارها أمواجُ الفجرِ،وفي خاطري خوفٌ يتمارضُ كلّما أتخيلُ مدافنَ الذكريات،عالمي أخرس لا صوت له لا لون له وكل من حولي شرائحُ لحمٍ طازجةٍ مصيرها إلى المجامر والشوايات،كنتُ أسبحُ ورأسي مملوءٌ بالغربةِ ولا أعرفُ مكانا ثابتا في ذلك النهرِ العميقِ،فأنا غيرُ كل تلك الأسماك التي تعرفها البشر،أخافُ من كلّ شيءٍ وأهربُ حتى من سعادتي وأحلامي ودائما ما تفزعني خيالاتي بتلك الكفوف المتوحشة التي سوف تمسكني في يومٍ ما وتقطعُ رأسي أمام الضمائر الفاسدة،إنَّني أشعرُ بتلك السكين ستشقُ ظهري من بدايةِ عنقي حتى آخر عظمٍ في ذيلي

كانتْ صديقتي السمكة تشاركني أغنيةَ الصباح،وتبادلني شعورَ الجوع مذ كنّا لا نعرفُ كيف نصنع الذكريات،مذ كنّا نجهلُ مدامع السفن وأحزان الماء على قتلِ وتعذيب المخلوقات المُتسّممة في القاع بسبب ما تقذفهُ الناس من النفايات والمزابل في إحساس النهر،وما يدهشني في ذلك العالم المبلول إنَّني

كنتُ أتوقع إنَّ النهرَ مقبرةٌ مجانيةٌ تُستخدمُ لحفظ الجثث وإخفاء جرائم المنحرفين وقاذورات البشر

كنّا نسمعُ الحكايات المرعبة من الأسماك الأكبر سنّا عن البلطجية الذين يعيشون على اليابسة،وكيف كانتْ قصصهم ترجمُ خواطري بظلامٍ مخيفٍ،ولطالما أتذكرُ تحذيرات أمي وخوفها من تلك الكائنات المضطربة فتقول إنَّ البشرَ وحوشٌ ضاحكة يأكلون بعضهم ويقتلون بعضهم ويدفنون بعضهم،فعهدتُ على نفسي ألا أصعد للسطح مهما تجبرني الظروف،فالموتُ في القاع لأرحم من الموت خنقا أو ذبحا أو شواء على يد بني الإنسان

كان ذلك اليوم العصيب المشحون بالجور والعذاب يضيفُ لونا دمويا لذاكرتي،ويتركُ في داخلي عطشا شهيا حيث كانتْ رائحةُ الدمِ تنادي جوعي وتُغري شهيتي من أعلى السطح،وعلى فرقعة الرصاص ودوي سقوط الأجساد وجدتُ نفسي أطيرُ في الماء بلا شعور حتى وصلتُ لأعلى الجرف،وكأنَّني لأول مرةٍ أرى البشر فكانوا كما وصفتهم أمي،فتملّكني الفضول وحركتُ زعانفي بقوة وأنا أسمع تلك الصرخات المتضرعة تأتيني من صوبهم،فرأيتُ وجوها تنزف وألسنا تتوسل وأذرعا مصفّدة إلى الخلف،وضربات قاسية على الرؤوس والأكتاف بأخامص البنادق وبكاء وعويل!

رأيتُ رجالا ملثّمين وآخرين مكشوفا عنهم يغلب على ملامحهم الخوف والهلع،وكأنَّ الموتَ صار يزدلُ ستار الفجيعة ويعلنُ وعيد السكاكين والرصاص على نهايات ذلك المشهد! وبين تلك المناظر البشعة جاءتْ صديقتي السمكةُ مذهولةً القلب وقالت لي هيا نهربُ بسرعة وإلا سوف يكون مصيرنا في القلّايات والطناجر،فقلتُ لها قبل أن نهرب اخبريني ما الذي يحدث؟ومن هؤلاء الذين يقتلون بعضهم بهذه الوحشية؟ فأجابتني متلعثمةً هؤلاء الذين يرتدون السوادَ ويحملون البنادقَ والسكاكين هم مجموعةٌ انحرفتْ عن دائرة الإنسانية وصاروا يعيشون على الحقدِ والبغضاءِ على عكس أقرانهم من الفئة التي ينتمون إليها،وأما المجموعة الثانية الذين وقع عليهم الموت وهم عزّل فهم ينتمون لمذهبٍ مختلفٍ وقد أصبحوا ضحية السياسات القذرة التي تنتهجها كُبراءُ الجماعات المذهبية من الطرفين،فقلتُ لها ولماذا لم يأتِ أحدٌ لإنقاذ هؤلاء الأبرياء فحتما إنَّ لدى زعماء طائفتهم أجنحة عسكرية وفصائل قتالية؟فقالت نعم لقد كانتْ لديهم الإمكانية على إنقاذهم ولكنّهم لم يفعلوا ذلك لكي يستخدموا هذه الجرائم ذريعةً للبقاء في مناصبهم،ولذلك إنَّ هؤلاء الشباب سيئو الحظ ما هم إلا طُعما مستباحا لصراعاتٍ بذيئةٍ،فالبشر دائما ما يضعون حُججا وأعذارا شرعية باطلة لتبرير أفعالهم الشريرة،أما أنا صرتُ أرى في تلك المجزرة قطعانا من

البشـر تفترسـها ذئـابٌ مـن البشـر فهـالتني لقطـاتُ التقتيـل والـذبح،وأرعبني صـوتُ الرصـاص عنـدما يـرنُّ بتكسـير الجماجم وينتزفُ الدم كما عيون الماء حين تتفجر من أعماق الأرض حتى وجدتُ نفسي تحت مسافة سقوط القتلى وقريبة من المشرعة

بـدأتُ أسـمع كلمـة (الله أكبـر) ثـم يسـقطُ شـاب كأنَّـهُ زهـرةٌ مقطوعة الرأس،وتتابعتْ الأجساد تتساقط واحدا تلو الآخر مع زغاريد البنـادق وتكّبيرات الملثّمين!وفـي تلك اللحظـات كانتْ تتملكنـي شـهوةٌ عارمـةٌ أشـعرها تـدفعني بـنَهَمٍ لأكـل لحـم الإنسان،فرائحةُ الدمِ تُثير لعابي وفي أسناني اضطرابٌ جامحٌ لطحّن تلك الملامح السُمر فاخترتُ واحدا من القتلى كانتْ الـروح مـاتزال ترفـرفُ بـين أوصـاله! فبـدأتُ أشـربُ دمـهُ وأتحسس وجهـهُ وأقدامـه وأرغبُ أن أتذوق لحمـهُ وأدخل فـي فمه حتى جرَفته المويجاتُ بهدوء وأنا أرافقه وأحـافظ علـى ألا يضيع مني أبدا...مضتْ أيام وليالٍ ورائحته في كل يومٍ تلهبُ رغبتـي وتـدفعني لتمزيقـه فأكلـتُ عينيـه وأذنيـه وامتصصـتُ أصـابعهُ وشـفتيه واخترقـتُ جوفـهُ فالتهمـتُ أحشـائهُ وقلبـهُ وقضـمتُ رئتـهُ ولسـانهُ وابتلعـتُ غـددهُ وأسـنانهُ حتـى نمـا جسمي،وأزداد وزني من تلك الجثة الشهية

مررتُ معه بين السدود والبساتين ووقفتُ أنتظرهُ كلّما كان يعلَق بين سيقان القصب أو أكوام الطحالب وعرفت إنَّنا قطعنا

عشـــرات النـــواحي والقرى،وابتعـــدنا كثيـــرا عـــن موقـــع المجزرة،كنـتُ قـد اعتـدتُ علـى أكـل لحـوم البشر،وصـرتُ أستطعم بمذاقهم وأستمتعُ بنهش تلك اللحوم المتفسخة حتى راودتني الحيرةُ عندما رأيتُ حجم تلك الجثة يتناقص يوما بعد يوم لكنَّني سرعان ما اطْمأْنَنْتُ لأنَّ أرخص ما في هذه البلاد هي الأجساد البشرية فحتما سأجدُ الكثيرَ منها ما دامتْ الطائفيةُ معشعشةً في نفوسهم! وفي تلك الأثناء أحسستُ كأنَّ ضربةً قاضيةً أو صاعقةً قاصفةً سقطتْ على رأسي بل كأنَّ جبلا رخاميا انهار وسحق جسمي وما هي إلا ثوانٍ حتى وجدتني مقيدة في شبكة صيادٍ عنيفٍ فسحبني إلى السطح

لقد تم القبضُ من قبل مجموعة من البشر غير أنَّهم في هذه المرة لا يتقاتلون أو يكبّرون بل كانوا مبتسمين فرحين لأنَّهم سوف يقتلون مخلوقاتٍ أضعف وأخّوى،وضعوني في حوضٍ كبيرٍ بعد إن اصطادوا كثيراً من صديقاتي وساقوهنَّ إلى جهةٍ مجهولةٍ،جاء أحدُ المارةِ عند ذلك الحوض وصار يتفحصني وعيناه تعلقتْ بجسدي البدين ولسوء حظي اختارني دون غيري فمد يدهُ واستلني من مياه الحوض وهو يلاعبُ جسمي بكفوفهِ الخشنةِ ويقربني نحو عينيه،أما أنا قد جفَّ قلبي هلعا واختنقت ارتياعا لأنَّني أبصرتُ شيئا غريبا عندما كان يقرّبني من وجهه،كأنَّني رأيتُ هذه الملامح مسبقا ساعتها تحركتْ أجنحةُ الذاكرةِ وعادتْ بي لأحداث تلك المجزرة وكيف أكلتُ

ذلك القتيل الغريب الذي مازلتُ أتذكر ملامحهُ جيدا،فإنَّ هذا الرجل الذي أنا بين يديه الآن يشبه المقتول تماما غير أنَّني أدركتُ في النهاية أنَّه يكون أخاً للمقتول الذي التهمته كاملا في الماء

وضعني ذلك الرجلُ على حجرةٍ كبيرةٍ تشبهُ الحجرة التي وضعوا عليها أخاه وصار يشقّ ظهري بعد إن كبّر على قتلي ثم غاب الوعي عنّي وتبددتْ أوصالي وتوقف قلبي وأعتقد أنَّه أكلني ولم يبقِ شيئا منّي وأكل أخاه معي الذي بنيتُ جسمي من أشلائه ودمه.

ذات الشعر الطويل

كنتُ أخجلُ جدّا عندما أراها،وأشعرُ في رؤيتها كأنَّ دبابيسَ ساخنة تخترقُ رداء قلبي،فشعرها الأسودُ أشرعةٌ داكنةٌ تهفهفُ في فضاء خيالي،ووجها المدوّر يربكني شغفا وافتتانا كأنَّهُ حزامٌ مشتعلٌ سقط مع إحدى حلقات زحل! وما مرّ ليلٌ إلا وحصحصتْ قناديلُ عينيها من خلف حجاب أحلامي فأرى دهاليز دماغي تفوحُ بالنور،كنتُ أستنطقُ وجهها بنظراتٍ مسروقةٍ،وأغنّي لها بدمي المضطرب في شراييني،وكلّما سمحتُ لأصابعي أن تتحسسَ وجنتيها تصدّني عنها مرارةُ الحقيقة،فما عساي أن أفعل بأنهار مشاعري التي تفجرتْ سدودها منذ أول يومٍ رأيتها فيه؟وكيف لقلبي أن يصدّق إنَّ تلك الفتاةَ الجميلة هي منَ أسوأ خرافاتي ولا يمكنني أن أحظى بها إطلاقا،بل إنَّني عبثا أحاولُ بانتظاري غرامها ورؤيتي صورتها كل يوم،فقررتُ أن أبعدها عنّي وأغلقُ جميع أبواب المحبة والحنين،فطلبتُ من أمي أن تأتي لغرفتي وتنتزع غلافَ مخدتي المرسوم عليها صورة تلك الفتاة ذات الشعر الطويل...وذلك لأنَّني صرتُ أعشقها وأخافُ أن يقولوا عنّي أصبحتُ مجنونا.

لا تتزوج عدوك

بعدَ مضي خمسِ سنواتٍ على إقلاعي عن التدخين،ووعدي المُحرّم لبقيةِ حياتي ألا عودة للسجائر مرةً ثانيةً وجدتُ نفسي في غرفةِ المحاميين بين زحمةِ الأوراق والملفات،وبين فوضى ربطات العنق وألوان البدلات غير المتناسقة أتعاطى الدخان بشراهة وقد عبرتُ إلى السيجارة السابعة دون أن أتّخذَ قرارا بعد متى سوف أتوقف،فأنا الآن أحرقُ السجائرَ وأقول في نفسي كان من المفترضِ أن أقلعَ عن مهنةِ المحاماة قبل الإقلاعِ عن التدخين، فلو بقيتُ فيها أكثر من هذا ستكون نهايتي وبلا شك في مستشفى المجانين!

في ذلك الصباحِ المضطربِ وأنا في قاعةِ المحكمةِ أنتظر دوري بالمرافعة كنتُ جالسا أمام القاضي وفي داخلي تغلي معاركُ الهواجس والظنون،وتنتشرُ بين جذور دماغي براغيثُ الحيرةِ والتردد كوني لستُ متيقنا بشكلٍ قطعيٍ من إنَّ موكلي مظلوم وإنَّ دعوته ومقاصده تجلّلها الأمانةُ والصدقُ،وفي كلِ ثانيةٍ تمرُّ كنتُ أرغب بإلغاء دفاعي عنه وأتراجع عن المرافعة،والحق أقول أنَّني كارهٌ لتلك البيئة الماكرة وماقتٌ لجميع الوجوه التي تصادفني فيها،لكنَّ الدواعي والأسباب

تجبرُنـي علـى أن أكـون هناك،لـذلك كنـتُ أحـاول جاهـدا أن ألتمس عذرا يساعدني على البقاء،وأستدعي شياطين المنافقة لتلهية ضميري عن الإحساس والتأنيب! وتسايرا مع الموجة وجدتني مستمعا للمرافعة التي تسبقني ليحين دوري بعدها

كانتْ تلك المرافعةُ لزوجةٍ أقامتْ دعوة طلاق بحق زوجها الذي كان حاضرا معها،كنتُ أشاهد زوجها التعيس مُنكسرا حزينا وأرى في ملامحه حقيقة الخذلان بل تفسير لمعنى ألا يكون مرغوبا فيك من أقربِ الناس لقلبك،وذلك بما سمعته يُهامسها قبل بدء المرافعة متوسلا أن تعدل عن قرار الطلاق ويعودان حبيبين أعمق من السابق،وقد أغرقها بوعودٍ غرامية ومواثيق ثابتة على أن يحقق لها جميع طلباتها ويكون زوجا مُطيعا وعلى مقاسات رغبتها،لكنَّها رفضتْ وصدتّه بعنادٍ مُطبق،وحين الاستماع إلى أقوالها أمام القاضي تبينتْ مجمل أعذارها تافهة سخيفة،ويبدو أنَّها ومحاميها تنقصهما الخبرة بالاحتيال والمراوغة

كنتُ أصغي لهجيج النار المستعرة في صدر زوجها وإصراره المُميت على الاحتفاظ بها،فهو ما انفك يذكرها بحلاوة الأيام التي أهدتهما مذاق الحب ووهبتهما إكسير الغرام محاولا في ذلك استعطاف قلبها إلا أنَّها كانت لا تفقه قدسية الذكريات،ولا تطمح في تلك الجلسة سوى الاستحواذ على أكبر قدرٍ من أمواله وممتلكاته تاركةً وراءها ضميرها وإخلاصها وحنوّها

وذكرياتها! كان يحدّثها عن الحب والمسامحة وهي تحدّثه عن دفع المهر وما تبقّى عليه من المقدم والمؤخر،كان يعاتبها على إنكارها تغاريد الوعود وجمال البدايات ويستعيد معها فصول العشق وحصاد الأحلام وهي كانت تتقصد اتهامه بالخيانة وتقلّل من شأنه بفضح مشاعره وانزعاجها من غيرته وملازمته لها في كل الأوقات

فقال لها القاضي إنَّ المحكمة لم تهدِ إلى أسبابٍ مُقنعةٍ أو مبرراتٍ مقبولةٍ تتوافق مع واقعة الطلاق،ثانيا أرى أنَّ زوجك متمسكٌ بكِ ويحاول جاهدا معالجة جميع المشاكل والأخطاء لذلك سوف يتم تأجيل الجلسة لأسبوعٍ مقبلٍ وهي فرصةٌ مثاليةٌ لمراجعة قراركما وتعديل مسار حياتكما قبل فوات الأوان،فشاهدتُ وجه زوجها تهلّل واستبشر بمقترح القاضي وعاد الدم يجري في عروقه بارتياحٍ وأمان،لكنَّ زوجته امتلأتْ غيضا واستشاطتْ غضبا ورفضت كلام القاضي جملةً وتفصيلا،وصارت تصرخ في القاعة بلا شعورٍ وتقول للقاضي أنا لا أريد هذا الرجل بعد الآن ولا يمكنني العيش معه ثانيةً واحدةً سوف أقتل نفسي سوف أهيم على وجهي لو بقيتُ معه! فقال لها القاضي إنَّ أسبابك غير كافية لطلب الطلاق فقاطَعتّهُ وهي تضجَّ عاليا وكيف تكون الأسباب مقنعة برأيك؟ فإنَّه كان بخيلا معي جدا ولم يشترِ لي الموديلات الجديدة من الملابس وعلب التجميل،إنَّه لم يأخذني للسفر

والترويح ولا يغدقُ علي بالمال كما يحصل مع صديقاتي وأزواجهنَّ،إنَّ هذا الرجل يا سيدي القاضي إمكانياته الجنسية محدودة،وعندما يعود من العمل متأخرا يتركني وينام ولم يشبع ما أروم إشباعه،وصارتْ تبكي بصوتٍ عالٍ وتلبستْ بشخصية المرأة المظلومة التي تعيش على حافة الحاجة والحرمان،فكنّا نرى في كل تلك الأكاذيب ما هو إلا إعلانٌ لافتقارها الفكري وإفلاسها الإنساني،وقد اشمئزَ منها كلُ من كان في القاعة وانقبض كراهةً من كلامها وكذا زوجها بقي صامتا مندهشا لا يعرف كيف يردُّ على أكاذيبها وافتراءاتها عليه وصار ينظر إليها متأسفا نادما ومخذولا!

لا أعرفُ لماذا كان زوجها العاثر يحدّقُ في وجهي بين الحين والآخر،وتعبسُ ملامحهُ حزنا كلما يراني متعاطفا معه وكأنَّه يقول لي همسا إنَّ الحبَ فخٌ خطي،إنَّه مغامرةٌ لا يُضمن فيها من تراهن عليه،فإياك ثم إياك أن تتزوج عدوك! وفي تلك الثواني وجدتني أفقد السيطرة على رباطة جأشي ولم أتمكن من أن أحسب ذلك الموقف حدثا عرضيا أو مصادفةً عابرةً بل شعرتُ بخناجر الجحود تمزق روحي،وإنَّ طعنات الغدر التي تلقاها ذلك الزوج المُبتلى هي ذات الطعنات التي وقعتْ في إحساسي،فخرجتُ من قاعة المحكمة هاربا من تلك الأجواء المليئة بالزيف والبطلان وجلستُ في غرفة المحاميين مبهوتا غير مصدّق وأقول في نفسي هل إنَّ من أحببتها بإخلاص

وكشفت لها مخاوفك ونقاط ضعفك وأعطيتها مفاتيح قلبك وجميع أسلحتك يمكن أن تغدر بك وتستخدم كل ذلك ضدك؟ هل إنَّ من تزوجتها بعشق وقضيت حياتك ترعاها وتحرسها وتعتني بها وتهتم لأمرها حتى صار لديك من اليقين القاطع بإنَّها لن تنكث أو تتخلى عنك في يومٍ ما وفجأة تجدها تقف على دكّة الخصوم ترمي عليك سهاما مسمومة فتدركُ ساعتها إنَّك كنتَ ترعى عدوا خبيثا لم تكتشف أمره إلا في محكمة؟ وهل بمجرد حدوث اختلافٍ أيًّا كان نوعه تتحول تلك الحبيبة إلى عدوٍ مستعمرٍ يقاتلُ على سلبك جميع أموالك وممتلكاتك حقا كان أو باطلاً؟ فتعسا للحب وبئسا للزواج

وفي غضون ذلك جاء موكلي غاضبا منّي وهو يستعجلني الذهاب إلى قاعة المحكمةِ لأنَّ مرافعتنا حان دورها إلا إنَّني نظرتُ في وجهه يائسا وقلتُ له أنا أعتذر جدا لقد أقلعتُ عن مهنة المحاماة ورجعتُ للتدخين مرة ثانية.

لحظة إدراك

لقد بكى بندمٍ وجيعٍ عندما وطئ تلك الدجاجةَ بقدمهِ وداس عليها دون قصد،وصار يستقبحُ نفسه ويلاعن حظّه على ما اقترفه من مثلبةٍ في حق تلك المخلوقة الضعيفة،حتى حسبتُ أنَّه يبالغ في ردة فعله وأفرط في وصف تأثره على ما فعل بحقها،فقلت له يا صديقي إنَّ الأمر لا يستوجب كل هذا التطرف في إظهار الرحمة،إنَّها مجرد حيوانٍ أعجم لا يفقه ما تشعر به أنتَ الآن؟ فقال لي وهذه هي الطامةَ الكبرى التي لا أسامح نفسي عليها ما حييت،إنَّها مجرد حيوان!

ثم نظر نحوي بعينين انتفختا بالدموع وقال إنَّها تشعر بالألم أليس كذلك؟ فقلت له نعم...وإنَّ الأمر لطبيعي فلا يوجد حيوانٌ أو إنسانٌ لا يشعر بالألم في حال تعرضه لأي صدمةٍ خارجية، فضرب وجهه براحة يده وقال إذن عندما نذبحها تتوجع وتشعر بالعذاب كذلك؟ فما الحكمة أن تقتل مخلوقا يتألم وتطبخه وتأكله في حين أنَّه لا يفرق عنك بامتلاكه دما ولحما وناقلاتٍ للألم والشعور؟ ما الحكمة من أن تذبح كائنا حيّا يتنفسُ ويخافُ ويتأذى ويتآلفُ ويتزوجُ وينجبُ سوى أنَّكَ

تشـتهيه وتتلـذذ بالتهامـه مُتّخـذا مـن خرافـات بيئتـكَ وتعـاليم رهطكَ صلاحيةً في القتل؟

يـا إلهي...أنـا قضـيتُ عمـري أفترسُ تلك المخلوقـاتِ الوديعـة وأتفـنّنُ بقـتلهنّ دون وجـه حـق،فمن أعطـى للإنسـان كـل هـذا التوحش وهذه السلطة على الضعفاء والأبريـاء من سكَّان هذا الكوكب؟ وصار يفركُ راحتيـه نـدما وحسرة! أمـا أنـا بعد تلك الحادثـة أقسـمتُ علـى نفسـي ألا آكـل لحـوم الحيوانـات مـرةً أخرى.

ممارسات زائر المقبرة

ذلك الشاعر الرجيم كان كلَّما يكتبُ قصيدةً يذهب بها إلى المقبرة ويقرؤها عند ضريح والده،فهو يجدُ فضاءً رحيبا وعالما مترامیا وجمهورا صامتا لا يصفّقون له ولا يتذمرون منه أو يتصيدون أخطائه اللغوية،وحال انتهائه من تلك الطقوس يجلس عند رأس أبيه ويبقى يعاتبه بقلبٍ كسيرٍ وينفثُ جمرات اللوم عليه بما ارتكبه من جنايةٍ جسيمةٍ بإحضاره لهذه الحياة الكئيبة،حتى يتأخرُ الوقتُ ويُخيّم السوادُ على أولئك الموتى فيعودُ أدراجه وهو فارغٌ من الطاقةِ والقوةِ

وفي أحد الأيام كنتُ قد رأيتُ ذلك شاعر المنكود أتى المقبرة كعادته يقرأ القصائد ويُكلّم الموتى ويوقد الشموع بين الدوارس ويبكي ثم يرش الماء على شواهد القبور! تملّكني الفضول فرحتُ عنده أستكشف طقوسه وأسمع أشعاره،وحين وصلتُ قلتُ له أراك مختلفا عن كل زوار المقبرة ونافرا من الحياة بطريقةٍ ستقودك للجنون؟ تبسّم ساخرا وقال لي وهل تعتقد إنَّنا في هذه الحياة نعيش بكامل قوانا العقلية؟ يا هذا نحن مخلّفات كونية وإبداع كيميائي تداخلتْ الطبيعة في صناعته فكنّا خلاصة نتائجه! وفي الحقيقة لم أفهم قوله هذا وقد عانيتُ من

فكّ رموزه فقلتُ له كمن يهرب من السؤال من أنت ولماذا ترتاد المقابر دون الأماكن الأخرى؟فقال لأنَّني الآن أحصد نتائج أخطاء أبي وأشعر أنَّ الشياطين القديمة تكشفني مثالا فاشلا لسياساتٍ قذرةٍ مارسوها على أهلي فكنتُ أنا من أفسد آثارها! لأنَّني خروفٌ بشريٌ أطاع الكهنة في فجر البدايات وفي المساء تحول لحمارٍ عاجزٍ عن التفكير فأضاع الصواب! أنا نموذجٌ واقعيٌ لأحد الكائنات المستَغفلة من قبل حكومات الظلام منذ قرون وألف قبحٍ،بل حصيلة متعفنة من سنوات الحصار والدمار والتمرد والتشرد والفقر والجوع وأخبث أنواع الحروب

يا صديقي إنَّ أتعسَ الناسِ وأسوأهم حظّا أولئك الذين يولدون في زمن الحرب،أولئك الذين يفتحون عيونهم في غبار العاصفةِ ويُتركون لوحدهم بين الأقدام وخلف الركبان وأنا كنتُ منهم! يا هذا إنَّ أشرسَ الأمراضِ وأخطرها هي الذكريات القاسية والماضي العصيب حين يتصارعان بضراوة ويتفقان على القتال في داخل الإنسان ويبقيان على ذلك حتى موته! فقاطعته منزعجا من تلك الفلسفة وقلتُ له أرى أنَّني بأسئلتي هذه قد فتحتُ جراحك وعبثتُ بجمراتِ أحزانك؟ وقبل أن أكمل امتعاضي منه اختفى وجه ذلك الشاعر وتلاشى من أمامي بلمحِ البصرِ وكأنَّه شيءٌ لم يكن،فاعتراني الذهول وصرتُ أردد أين ذهب يا ترى؟ أين غابَ الرجلُ فجأة؟ وفي

نهايـة المطـاف أدركـتُ أنَّـه لـم يكـن هنالـك شـخصٌ سـواي فـي المقبرة! وإنَّ القبرَ الذي وقف إزاءه ذلك الشـاعر المتشـائم هو قبر والدي،حتى تبيّن أنَّ من كنتُ أحاورهُ وأناطحـهُ بـالكلام مـا كان هو إلا أنا.

الحمار سيد الحضيرة

في لحظةِ استحمارٍ غير متوقعة ولأنَّه ورثَ البردعةَ والخُرْج عن أبيه،نصّب ذلك الحمارُ الأَهوجُ نفسه قائدا على جميع الحيوانات التي تعيشُ معه في مزرعة الراعي،واستحصل على موافقاتٍ شكليةٍ من بعض الحمير العابرين شططا إلى مسالك القرية ومن العاملين في الحقول الذين لا يملكون من الحريةِ والإرادةِ شيئا،غير أنَّه اجتهدَ وثابرَ على أن تكون عمادته وقيادته قانونية ومؤثرة على من حوله،وفور انتهائه من ذلك الاستفتاء الحيواني أعلن عن انعقاد الاجتماع الأسبوعي الأول لجميع البهائم الموجودة في الزريبة الرئيسية كان الغرضُ من ذلك الاجتماع هو اختبارُ طاعتهم وامتثالهم لأوامرهِ كحمارٍ قائد،وتجربةٌ حماسيةٌ مباشرةٌ لفرض سلطته وزعامته على أقرانهِ من الحيوانات المشتركين معه في السكن،فحمارنا المندفعُ بغاياته النفسية ومشاعره التي ازدرى بها الإنسان وأهانها على مرّ العصور جعلهُ يفكرُ أن يخرج عن صمته ويضع حدّا لهذا الإذلال والاستخفاف الذي وجد نفسه وجميع أفراد عائلته يعانون ويلاته،وما إن حان موعدُ الاجتماع الذي سوف يعقده السيد الحمار في الحظيرة

المركزية حتى حضرتْ جميعُ الحيواناتِ الأليفةِ التي يمتلكها الراعي،وقد استقبلوه بالأغاني والأهازيج،وصوّروه بمدائحهم وتعظيمهم له بالأسد الجَسور وصانع المجد المُطاع بسماحتهِ ونبلهِ فرفعوه على الأكتاف محتفلين به ومرحّبين فيه بعد ذلك صنعوا له منبرا فخما ليخطبَ فيهم ويطلعهم على برنامج عمله وخطّته الأمنية

كان ذلك الحمارُ الظنّان يعاني من الارتخاء المزمن في أفكاره ويواجه نقصا حادّا وضعفا واضحا في شخصيته بسبب ذكريات طفولته السيئة واضطهاد البيئة له والمعاملة القاسية التي رآها من الراعي على مدى سني عمره،فأصابته رعشةٌ خاطفةٌ وهو يرتقي المنبر خصوصا عندما شاهد عشرات الحيوانات ينظرون إليه بعيونٍ مشحونةٍ بالحب والإعجاب،فهو لم يصدّق ما يحدث معه ويتخيل أنَّه هوى في بحيرةٍ من الضباب وضاع بين أضغاث ضعفه وهلاوس أحلامه،فنهقَ نهقةً مباركةً وقال بصوتٍ جهورٍ أنا سوف أدافعُ عنكم بكلِ ما أملك،سأخلصكم من ظلم الراعي ومن خطورةِ المفترساتِ وكلّ من تسوَّل له نفسه بالاقتراب منكم،وانطلق لسانهُ يطقطقُ بالوعود المجانيةِ وبالبطولاتِ الأسطوريةِ وأنَّه سوف يُعيد لهم العزةَ والكرامةَ ويجعلهم أسيادا ووجهاءً في جميع الزرائب

قام الخروفُ من مكانه واستسمح من سيادة الحمار بالكلام فأذن له فقال أنا وكلُ أولادي الحملان نعاني من مشكلتين فقال

الحمار اطرح كل مشاكلك فأنا سوف أقضيها لك بلا ثمن،فقال الخروف إنَّنا نعرفُ بنيّةِ الراعي ومقاصده الدنيئة عندما يرعانا ويهتم بنا ويقدم لنا أفضل الأعلاف وأجود أنواع الحشيش،إنَّه يريدُ أن يُسمّن أجسادنا ويُرهّل جوانبنا باللحم والشحم لكي يبيعنا بأغلى الأثمان!وكذلك يستفيدُ من حليبنا وأصوافنا ونحن فعلا قد سئمنا كل هذا الاستغلال والظلم،وأضاف أتعلم يا سيدنا أنا وزوجتي مازلنا نبكي شوقا ونتحسرُ فقداً على أولادنا الصغار الذين ذبحهم الراعي أمام أعيننا قبل أيامٍ عندما زوّج أحد أولاده،فلماذا يذبح أولادي كي يفرح ولده هو؟ولماذا يطبخ أجسادنا في مناسباته ورغباته الخاصة دون أن يراعي الرحمة فينا؟ أما المشكلة الثانية فهي تخصّ جميع الحيوانات في هذه الحظيرة،فنحن نعاني من الهجوم الليلي المتكرر من الذئاب المفترسة خصوصا إنَّ الراعي ليس كما كان في السابق فهو صار يتهاون بحراسة القطيع ولا يهتمّ للجرائم التي تُرتكب بحقنا،فقال الحمار لا تحزن أيها الخروف سوف أكون أنا أول المُتصدّين للذئاب ولا يمكن أن أدعهم يعتدون عليكم بعد الآن

بعدها قام الديك وقال يا سيدي الحمار أنا وزوجاتي وجميع الأفراخ نعيش في إرهابٍ دائم وتهديد مستمر بسبب وحشية الإنسان بحقنا،فهو يقتلنا ويشوينا بلا رأفة،إنَّه يأخذ بيضنا رغما عنّا وعندما يشعر بالجوع يذبحنا ويقضي علينا،فكم

تبرّمنا أسفا وحزنا وعاتبناه حين اكتشفنا إنَّنا أرخص لا بل أحقر المخلوقات في نظره،فيا سيدي بما إنَّك صدّرتَ نفسك قائدا علينا ووعدتَ جميع حيوانات الزرائب بالحماية وإيجاد الحلول فمن الواجب أن تفي بما وعدت وتتجشم العمل لرعاية شعبك؟ فقال الحمار وأنا مازلت ملتزما بما قلت ووعدت ما دمتم تنادونني بألقابي العظيمة،فأنا الزعيم وأنا القائد بل أنا الملك المُنتخب بالاستحقاق والمحبة والكفاءة ثم نهق بخيلاء وصار يمشي على وصيد الحظيرة بكبرياءٍ وتبختر،واستكمل الاجتماع بمشاركة الحيوانات الأخرى حيث قام الثور وزوجته البقرة بطرح مشاكلهما وتبعهما كبير التيوس وشيخ الأوز وحتى الكلاب والقطط والفئران كلٌّ تكلم عن معاناته وما يشغله من ترويعٍ وقلق وأُختُتم مجلسهم بمبايعة الحمار على السمع والطاعة،فصدّقوا به وتوافقوا على انتخابه وتوليه الوصاية عليهم

مضتْ الأيام والليالي وتقدمتْ الأعمار وتغيرتْ الوجوه والحمار ما فتئ يراوح في ذلك المنصب الحسّاس غير أنَّه لم يحدث إن نفّذ إنجازا واحدا ولم يفِ بوعوده التي قطعها على نفسه أمام جمهوره وناخبيه في تقديم الخدمات وتوفير الحماية لهم سوى أنَّه كان يأكل أفضل أنواع الطعام ويحتسي أجود الشراب وينام على فرشٍ وثيرةٍ ويمارس على أقرانه سلطة

المُتحكم وجبروت الرئيس،حتى صار البعض منهم يتذمر والآخر يشعر بالاستغفال والعبط!

وفي إحدى ليال الشتاء الباردة كانتْ الريح تضرب أبواب الحظيرة والبرد يملأ المكان فارتعشتْ فرائص الحيوانات،واصطكتْ أسنانها وطوتْ كشوحها بحثا عن الدفئ والأمان،كانوا جميعهم صامتين وخائفين فقسم منهم استسلم للنوم والآخر يجاهد عيونه لينام،أما قائدهم الصنديد فقد كان نائما بأعمق لحظات السكون في مكانٍ دافئٍ ومأمونٍ بعد إن تناول عشاء فاخرا وشرابا ساخنا...وفي تلك الاجواء المهيبة والثواني المخيفة هجمتْ على حظيرتهم مجموعةٌ من الذئاب المفترسة فداهمتهم وفتكتْ بجميع الحيوانات،فقتلتْ من قتلتْ وسرقتْ من سرقتْ وتحولتْ تلك الزريبة إلى مجزرةٍ بشعةٍ لم ينجُ منها إلا الهاربون والمدبرون عن المواجهة والذي كان بطليعتهم السيد الحمار! فمات الكثير منهم وتأسرتْ الحملان والعجول وبقيتْ أشلاء الموتى تملأ المكان

وبعد انتهاء تلك الفجيعة عاد الناجون منهم وقد حولوا أنظارهم نحو قائدهم الجبان فهمّوا أن يوبّخونه على خزيّته وهروبه من المعركة،فعيونهم مترعة بالدموع ونفوسهم تحرقها مرارة الفقد إلا الخروف فقد كان يضحك بصوت عالٍ جدا على الرغم من أنَّه كان أعظمهم مصابا وأكثرهم فقدانا لأفراد عائلته في تلك المذبحة

كان يضحك ويقفز ويضرب بأقدامه الأرض حتى أثار فضول الجميع بما فيهم ذلك الحمار فصاح الديك وهو يشعر بالإستفزاز قائلا للخروف ما المضحك في وسط كل هذه المصائب أجننت أم أصابك هذيان؟نظر الخروف للديك وقد احمرت عيناه استهجانا وقال أيها الديك أنا لا أضحك على مصابكم بل على نفسي! فأنا في هذه اللحظة أمرُّ بحالةٍ من الإدراك والتجلّي،هو إنَّني أستحق كل ما حدث معي في هذا اليوم لأنَّه وببساطة القول لا أمان لمن ينتخب حمارا.

مونامور

إن أروع ما يطرأ في حياة الإنسان هي لحظة اكتشافه الأشياء الجميلة،والأجمل من ذلك هو أن يتفاعل مع كفاف سعادته وإن كان تفاعلا في السرّ،وهذا ما حدث لي عندما كنتُ طفلا مُفعما بالعاطفة،فأنا أتذكر إنَّ عينيَّ كان يجرحهما السهر وتتراخى أعصابي وبقايا طاقتي حين كنت أنتظر الساعة الثانية بعد منتصف الليل،لأن في ذلك الوقت ينتهي بثّ برامج الإذاعة لتتحول إلى بثّ المقطوعات الموسيقية فقط،كنت أحتظن جهاز الراديو بحرارة وملح السهاد يتجمد تحت جفوني،وأشعر إنَّ زخارف عقلي تتبعثر حين تدندن بوارق الآلات الموسيقية،أتذكر إنَّني آلفت الموسيقى مع أول موعدٍ مع سقسقة جيتار يتنشّق سحرا في جوف الليل،وعشقت شدّو النايات حين تفتح بوابات السماء بنشاغات مباركة،كنتُ لا أعرف أسماء الآلات الموسيقية ولا حتى الموسيقيين غير إنَّني تذوقتُ طعم الحسرة وتحسستُ وجه القمر عندما سمعت لأول مرة تلك النغمات والألحان

أتذكر أنني ذهبتُ صباحا إلى محلّ التسجيلات الصوتية وسألته مترددا عن وجود موسيقى بلا غناء أو كلمات؟ كان

هناك شخص واقفا بجانبي يرتدي زيّا ريفيا متسخا وعلامات الفقر والبساطة ظاهرة على محياه،فقال مسرعا لصاحب التسجيلات اعطه مونامور! لم أكن ساعتها أعرف ما هي المونامور إلا إنَّني الآن أتمنى لو ألتقي بذلك الشخص للحظةٍ واحدةٍ لأقول له كم أنتَ عظيم يا سيدي.

يــا إلهي...أشــعر أنَّنــي قــد ســقطتُ،برغم الأســوار الحديديــة الشاهقة وتمارين الانفصال والاكتفاء القاسية التي حصنّتُ بها حــدود مشــاعري،وبرغم ممارســتي أعنــف جلســات العزلــة وأصعب دروس التعود على الفراق التي روّضتُ فؤادي علـى تكرارها،وذلـك لأنَّنـي أرغـبُ وبشـدّة عنـدما تـوافيني الخاتمـةُ أرحـلُ وحيـدا دونَ حبيـبٍ يتـألم أو خليـلٍ يتجشم،فأنا أكـره أن يشـاركني أحـدٌ نهـايتي ومازلـتُ أحـاولُ جاهـدا ألا أتعلـق بـأي مخلـوق! غيـر أنَّنـي وجدتُ قلبـي قد تسوّر كل تلـك المتـاريس والحـواجز غفلـةً منّـي وطـار مخمورا برائحـة أنثـى إلـى مكـانٍ يُوزع فيه الغرام بالملاعق

لم أدرك كيف قلبي باغتَ جثـامين السنين المقبـورة فـي ثقـوب رأسـي وغـادرني دون إذن؟وكيـف صـحوتُ فجـأةً لأجـد قلبـي مُصـابا بالحب دون أن أعرف متـى وأيـن؟ لكنَّ مـا ذلّل علـيَّ مـأزق ذلـك العشـق هـو إنَّنـي أعلمُ إنَّ أطهر أنـواع العشـق هو ذلك الذي يمطر علـى مـدافن روحك شغفا ويبعثُ فيهـا نشـاطا بهيجـا مُحلّـى بـالجنون! وأخطـر زمـنٍ يمكـن أن يهاجمـك فيـه الغرام هو عندما تكون أعزلا ومتنازلا عن خوض أي معركـةٍ عاطفيـةٍ،والحق أقـول إنَّنـي ومنـذ سـنين عاهـدتُ نفسـي علـى

الاستسلام والتراجع عن كل الفرص والعلاقات،واحتجبتُ بكهف عزلتي أصارعُ عفاريت عقلي والآن ينتابني شعورٌ صادقٌ بأنَّ قلبي متورطٌ جدا مع إحداهنَّ!

لقد كانتْ فتاةً تحملُ في عينيها خزائن البحار وما يغوص في غمراتها،وعلى مضارب خديها تشتبك أشجارٌ يانعةٌ تتهدل بالتفاحِ الأسمر حتى إنَّني أطلتُ نظرتي الأولى في صورتها المباركة،أتذكرُ ساعتها قد أبصرتُ قمرا يتلألأ في سماوات وجهها انبثقت شمائله بالنور فأضاءتْ جميع المدن المظلمة في داخلي،لا أدري من أين جاءتْ تلك الكلدانيةُ الفاتنةُ لتهزَّ كياني وتزعزعَ هياكل مشاعري بغرامٍ متأخر؟ ومن أي جوريةٍ سقطتْ لتظهر لي كجنيةٍ صغيرةٍ تتأرَّجُ بنفحات الأنوثة وتطير مع الفراشات! وكلما جرّبتُ أن أتقدم خطوةً للمعركة محاولا تحرير قلبي تقف في وجهي عقابيل حظّي ورياح الخسارات القديمة التي دمرَتْ سفني دهْما وقذفتني بعيدا عن حياتي

يا إلهي... إنَّني الآن أقفُ بالمنتصف،لا يمكنني الحصول عليها ولا أستطيع أن أترك قلبي يلفظُ أنفاسه الأخيرة! فيا إله الكلدان خفّف من إرسال حورياتك الصغار إلى الأرض،وترفّق بروح شاعرٍ انفلقتْ بلحيته سنابلُ الشيبِ وصار يخشى الهلاوس فسكنَ مختبئا في زوايا الليل وكتبَ على باب قلبه معذبٌ إلى إشعارٍ آخر.

في المطار

لقد سافر مُجبرا وارتحل بعيدا عن مناهل ذكرياته على أملٍ مستبعدٍ للرجوع،إنَّه مازال يتذكر اليوم الأخير الذي ودّع فيه ضحكات طفولته وألعابه القديمة وغادر حزينا وهو يحمل في رأسه ذكريات أيامه التي قضاها بين شوارع المدينة وأسواقها،يتذكر غروب بابل وأنهارها وتحنّن قلوب الجيران وضحكات الأصدقاء،سافر بعيدا وقد عبأ حقيبتهُ بأحزان إخوته وألحان غرفته وبقايا السهر الذي كان يصارعه بكتابة الأشعار والقصص،وقد غاب طويلا عن عيون حبيبته التي أمرضتها المسافات وأرهقتها مناجاة العابرين على بروق الليل شوقا للقاء المحبوب

وكذا مرتْ سنواتُ الهجر وهو في كل ليلةٍ يملأ رأسه بالجنائز المتساقطة من غمائم الظنون،ويرى أقدام قصائده الزاحفة بأثقال الغربة تتضخم على سكاكين الخيبة،وكلما يتأمل طريق العودة يراه بعيدا وقد جزع البقاء،فما أقسى أن تكون وحيدا مع أناسٍ لا يفقهون لغتكَ وعالمكَ ولا يشعرون بالكوارث التي تخفيها عنهم في قرارة نفسكَ،فكان كلما تستعر جذوات الاشتياق في صدره وتلتهب أنفاسه شجنا لفراق الأحبة يركض

مُتلهفا لأقرب مطارٍ في المدينة لا لكي يستقبل أحدا أو يروم السفر إلى بلاده بل يذهب هناك لرؤية الطائرات تقلع وتهبط مثل الطيور المهاجرة،ويبقى يفتش عن أي طائرةٍ تحمل علم بلاده لعلها تجلب شيئا من رائحة الوطن

كان يفيض بالمسرات والبهجة حين يشاهد تلهف عيون الواقفين عند بوابة الاستقبال،وكيف تكون شابحة بالود وتذهلها بشارات التلاقي بعد جفاءٍ وانقطاع،كان يُحبذ أجواء المطار ويعشق تلك الأحضان الدافئة عندما يرى أجساد المشتاقين تندمج لهفَةً في لحظة عناقٍ سرمدي يتبادلون فيها الأرواح ويطفؤون ببردها حرائق الإنتظار التي لفحت قلوبهم في فترات الغياب،فهو يؤمن بصدق تلك الأحضان ويعتبرها أقدس لحظةٍ وأطهر حالةٍ من التجلي الإلهي عند البشر

كان مغرما بتلك الكفوف التي تحمل باقات الورد وصرخات الترحيب التي تنفلت من حبالهم الصوتية وتنطلق كعصافير الصباح في وجه الآتين من السفر،ويذوب إشفاقا حين يرى تلك العيون تفيض بعناقيد الماء التي تفجرها دبابيس اللقاء!

فأحيانا تجد بعض الأرواح أنَّها تعود إلى الحياة بدمعة،وتكتشف بعض الطيب يُذاق بالشعور،أو قد تأتيك لحظات إدراكٍ متتاليةٍ بمجرد أنَّك تنظر إلى الضوء الخافت المكنون في داخلك،لذلك كان يرى إنَّ معاجز الحب لا تحدث إلا عندما تتساقط قشور الروح ويعلن القلب حاجته

للأمان،وهكـــذا يســـتمر ذلـــك الغريـــب بإعاشـــتهِ مراســـيم المحبة،ويتصالح مع نفسه وحيدا كلما تتبعثر مشاعره ويشعر بالاشتياق فيكرر زيارته للمطار.

ديمقراطية كلاب شارعنا

بعد إن تحالفتْ كلابُ شارعنا،وعقدوا مجلسهم الأول في الخرابة المهجورة الواقعة أمام بيتنا،اتفقوا على محاربة أي كلبٍ غريبٍ يدخل مجال الأرض التي تحالفوا على امتلاكها،وإنَّهم سوف يقاتلون بضراوة كل من تسوّل له نفسه بالاقتراب من المزبلة الموجودة في نهاية الشارع،لذلك ومن باب الاحتراز ورفّع لحالة التأهب والجاهزية،وضعوا مجموعةً من الكلاب الأشداء حول مواقع المزابل والخرائب المنتشرة في منطقتنا يتناوبون على حراستها،فهم يعتقدون في ذلك أنَّهم يحافظون على كرامتهم وتاريخهم ككلابٍ أُصلاء في المدينة

بعد مرور عدة أشهر من المرابطة والثبات وانتشار قصص بطولاتهم وبسالتهم بين طوائف كلاب مدينتنا المترامية كان أحد كلاب شارعنا يلتقي سرّا مع كلبةٍ بيضاء من كلاب الحي المجاور،فهو لم يستطع كبح جماح عاطفته وطيش غرامه الذي جعله يخاطر ويرتكب الحماقات! لكنّه لا يعرف إذا تم كشفه من قبل كلاب المنطقة سوف يقيمون له محاكمةً علنيةً

ويعاقبونه بأشد العقوبات أهونها إنهم سوف يأكلونه حيا أو يغتصبون كلبته ويأخذونها منه بالإكراه

كانت تلك الكلبة مراهقة لعوب تغلب على أخلاقها صفات الخلاعة والفسوق،وتستهويها حركات التغزّل والمعاكسات الشهوانية وبالخصوص من الأغراب،وكعادته أسرى ذلك الكلب العاشق طريقهُ ليلا نحو مسكنها وتسوّر سياج الحي خلسةً للقاء بها وهو مألوس العقل وشاهر الحب،وحين رآها هزَّ ذيله تودّدا ورقص حولها بأقدامه الرشيقة طالبا بذلك معاشرةً سريعةً منها كونه يشعر إنَّ زمام رغبته انفلت ولم يعد يستطيع التحكم برغبته الجنسية!

قالت له إذا كان لابد من طلبك هذا فشرطي عليك أن تساعدني أولا بالوصول إلى المكان الذي تُقام فيه اجتماعات الكلاب المتحالفة وتتوسط لي عند قائد المجموعة بالدخول إلى مزابلكم الفخمة وحيكم وشوارعكم ساعتها سأمكنك من نفسي وأحقق لك ما تريده منِّي وصارتْ تتمايل وتستعرض جسدها الممشوق أمامه،وتتقصد برجرجة أفخاذها ومؤخرتها قبالته كي تؤثر في غريزته وتجّبره على الموافقة!

كان صاحبنا الكلب مهزول الشخصة ومستهتر الأفكار ويعاني من هيجانٍ جنسيٍ جارف فوافق مباشرة دون تفكير وعهد لها بتلبية شروطها عند شروق الشمس

وبالفعل فهو في اليوم التالي أحضرها معه إلى شارعنا المُزدحم بالكلاب المسعورة والمهووسة بالمفاسد والتناحر فالجميع هنا لديه تفويضٌ بالقتل وتخويلٌ شاملٌ من قبل رئيس تحالف الكلاب بالتعرض لأي مخلوقٍ خارج دائرة حزبهم،وعندما رأوا تلك الكلبة الغريبة المفعمة بالمفاتن المغرية والأوصاف المثيرة على الفور هجم عليهما ما يقارب خمسة وعشرون كلبا جائشا وأبعدوا عنها الكلب الذي جاءت معه،ثم اقتادوها جميعهم إلى الخرابة واغتصبوها اغتصابا عنيفا بما فيهم قائد التحالف ونوابه!

كانت تلك الكلبة المُنتهك شرفها لم تبدِ رفضا أو ممانعة على الاعتداء،بل كانتْ تضمر في سريرتها الموافقة والاستمتاع بما حدث معها،ومن تلك اللحظة أعلنتْ انفصالها القطعي عن عشيقها الأحمق الذي ساعدها بالوصول إلى شارعنا المكتظ بالكلاب الأقوياء وذوي المناصب العالية،وقد أقامتْ العديد من العلاقات غير الشرعية مع جميع كلاب المنطقة وأصبحتْ معروفة ولديها جمهورٌ غفير وصل إلى خارج حدود مدينتنا الكبيرة!

وبعد فترة حين كنتُ راجعا من سفرةٍ قصيرةٍ وفور دخولي مشارف المدينة رأيتُ صورا كثيرة لتلك الكلبة الفاسقة منتشرة عند المداخل والمخارج وفي الأسواق وعلى أسطح البنايات وعلى الأسوار والجسور،كنتُ أسير بين الشوارع مندهشا وأنا

أرى صورها معلّقة في كل مكان،عند أبواب الدوائر وعلى أعمدة الكهرباء وحتى في شارعنا وفي الخرائب والمزابل المتفرقة بين الأحياء والقصبات،وحين تحريّتُ عن سبب انتشار صور تلك الكلبة المبتذلة في جميع الأماكن تبيّن أنَّها رشحت لانتخابات برلمان الكلاب،وحتما سوف ينتخبها الآلافُ من الحمقى والمغفلين منهم.

الثلاجة المُرعبة

مازلتُ أشعر بالخجل وعلى لساني تنغرز مساميرُ الإحراج كلما أردتُ أن أعترف لأهلي بأنَّني أخاف من ثلاجتهم المُرعبة،فبسببها صرت أتخيل أنَّني أعيش مع ثلةٍ من المجرمين،وأحيا مُجبرا مع زمرةٍ من مصاصي الدماء وآكلي اللحوم المحرمة

مازلتُ أراقب تلك الثلاجة من بعيد وبخاطري تتصارع أوزاع الرهبة والهلع،وحين أمرُّ بجانبها تتسارع نبضات قلبي وتخنقني روائح الموت المنبعثة كالدخان من عفونة بطنها!

مازلتُ أشعر بالذهول والفزع كلما فتحتُ بابها ورأيتُ رؤوس وأفخاذ الدجاج متجمدةً في الجزء العلوي منها وكأنَّني أشاهد براد مستشفى تتراكم بداخله الموتى أو مشرحةً يقطّعون فيها الأجساد على مقاساتٍ مختلفةٍ،فمشكلتي إنَّني لا أستطيع أن أتجاهل شعوري بالظلم لتلك الحيوانات البريئة،ولم أجد تبريرا فيسيولوجيا أو صلاحية علمية تجعلني أتقبل فكرة الافتراس الهمجي بحق تلك المخلوقات العاجزة،فكلّنا نشعر بالألم ونكره الموت،وكلّنا نمتلك المشاعر ونعشق الحياة فمن سلّط هذا على هذا؟ ومن أباح لنا إراقة الدماء وركّب فينا هذه الوحشية؟

أنا في ذلك اليوم قررتُ أن أعلن احتجاجي على ما تقوم به عائلتي من جرائم سافرة،فتشجعت أمامهم وأبلغتهم إنَّهم يستخدمون تلك الثلاجة لأغراضٍ غير إنسانية ويجب عليهم ألا يحفظوا فيها تلك الجثث المقطعة مرةً ثانيةً فهي تسبب لي الخوف وتجعلني أعيش في إرهابٍ دائم،لكنّني إلى هذه اللحظة لا أعرف لماذا يضحكون كلما يتذكّرون ما طلبته منهم؟

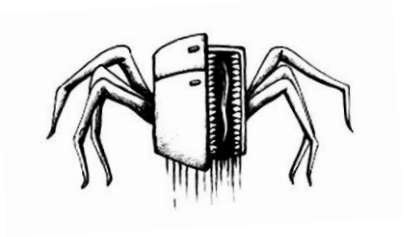

آثار بابل لا تنام

في ذلكَ الظلامِ الغاسِق كانَ عالقا بسلاسل الضياعِ وملتصقا على عفنِ الرواياتِ الباطلةِ مع آلاف التائهين الغافلين في دفائن الزمن،إنَّه مازالَ ينّقر في رؤوس الكتبِ وينّثرُ جمراتِ قلبه المستعرة لعلَّه يمسكُ ذيولَ قصص أسلافهِ المتجمدةِ تحت التراب أو يتعثّرُ بالسطورِ وينزلقُ فتتلاقفه كفوفُ آبائهِ العطوفة

ففي ذلكَ الليلِ الهمودِ باتَ يتململُ شوقا ويستمعُ لمعارك الآلهةِ القديمةِ تضطرمُ بأناشيد أمهاته،باتَ يشعرُ بمراكب الدهرِ تبتلعها أمواجُ الحنين لتلك المساءات البابلية العهيدة،ويقرأ بجرائد الليل قصائدَ مبلولة ثم يعصرها فتتساقطُ منها الكنائسُ وبيوتُ القصبِ وبقايا دماء الكلدان

في تلكَ الليلةِ المظلمةِ كانَ ينظر من أعلى السطح لمدينةِ بابل الأثرية وهي تلوّحُ له بكفوف الأبراج المهدمةِ وتستدعيه بترانيم الأمومة ورسائل أجداده المسمارية وتقول من بعيد تعال يا ولدي واجمعْ عظامَ أجدادكَ في هذه الساعة،تعال واسندْ صلبانهم المتناثرة إلى جانب قلبي فالغربةُ أبعدتهم،والشتاتُ انتزع تيجانهم وأسمائهم وحطمَ نواقيسهم

العتيقة! تعال يا ولدي وقفْ على دكاك هذه المعابد وارفعْ صلاتكَ بلغةٍ كلدانيةٍ مباركةٍ واصرخ بكلّ ما يحمل التاريخُ من تزويرٍ وتلفيق بأنَّك كلدانيٌ عائدٌ من رماد المذابح،وراجعٌ كطيرٍ مهاجرٍ يفتش في أعشاش أهله الراحلين
فنزلَ من السطح ركضا واتجه لخرائب بابل الأثرية وهو لا يعرفُ أين يضعُ قدمه،فالأماكنُ مظلمة ولا يوجد سوى الشرطةِ وحراسِ المدينةِ وسرعان ما تم القبضُ عليه وأعادوه إلى أهله وألزموا عليهم أن يأخذوه في اليوم التالي إلى مستشفى الأمراض العقلية.

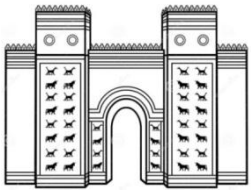

عندما يكون المجرم بطلا في الجيش الأمريكي

الطفلــةُ الأمريكيــةُ الصــفراءُ كانــتْ تعــيش أســوأ أيــام حياتها،وتقضـي الليـالي علـى وجـعٍ يجـرف خـزائن قلبهـا إلـى جحيم الأحلام حيث مرارة الفراق ومشاعر الاشتياق،فالأقدار لم ترشدها بعد أين تجد الترياق المُنقذ،وأين دواء السكينة الذي سـوف يسـاعدها علـى التصـبّر والانتظـار لرؤيـة أبيهـا الـذي مازال يقاتل في العراق

إنَّهـا فـي العاشـرة مـن عمرهـا ولا تـدرك معنـى ذلـك التعلـق الأعمـى الـذي يكـون بـين الفتـاة وأبيهـا،ولم تقتنـع بأعذار أمهـا المتكررة التي ما عادت أعذارا لها قوة التأثير والتخدير مثل ما كانت في السابق،لقد مضى وقتٌ طويلٌ على رحلته والطفلة ما برحتْ تعاني من متلازمة التخيلات النقية التي تتصورها مـع والـدها،فتارة تنظـر إلـى فراشـه فتجـده فارغـا كأنَّـه عـشٌ غادَرته الطيور وهاجرتْ بعيدا عنه،وتارة تتسلل خفيةً لخزانة ملابسـه فتشـمُّ عطـر قميصـه وتمسـحُ وجهها بأكمامـه وتقبّلـه بالدموع لعلّها في ذلك تخمدُ وحشة الفراق التي استهلكتْ قلبها وســحقتْ زهــور طفولتهــا وهــي مازالــتْ فــي عمــر الفراشات،فالحياة دون وجود الأحبة ما هي إلا صداعٌ مزمنٌ

في رأس عجوزٍ أخرس،والفتاة حين تفقد والدها ستحيا ذليلة وتبقى تشعر أنَّ هنالك شيئا ينقصها

في أحد الأيام سألتْ الطفلة أمها عن سبب ذهاب أبيها مع الجيش الأمريكي للحرب في العراق؟ فقالتْ الأم إنَّ أباك بطل مغوار،ذهب يحارب الإرهاب ويقتل المجرمين لكي ينتشر السلام ويعيش الأطفال اللطفاء مثلك،تبسمت الطفلة وشعرتْ بالفخر والاعتزاز وهذا ما زاد حبها لأبيها أكثر مما مضى،وعندما عاد من الحرب كانتْ لا تفارقه ولا تملّ من التحديق فيه ولا تتوقف من الارتماء في أحضانه،فهي تراه بطلها القوي وفارسها الحنون الذي خلّص العالم من العراقيين الأشرار

وحين عرف أبوها بأمر اشتياق طفلته وعائلته له طيلة فترة غيابه،وعلم بمشاعرهم العميقة بالزهو به والإعجاب بشجاعته أراد أن يعزز محبتهم وإعجابهم بشيءٍ مرئيٍ حقيقيٍ يُثبت تصوراتهم ببطولاته وأمجاده،فجمعهم في غرفته وشغّل لهم مجموعة من مقاطع الفيديو التي صورها لنفسه وهو يقتل العراقيين ويحرق جثثهم وختم جلسة التفاخر تلك بفيديو أخير وهو يغتصب طفلة عراقية بعمر ابنته اسمها (عبير الجنابي) بعد إن قتل جميع أفراد أسرتها وقام بإحراق جثتها بملابسها وانتهى ذلك الفيديو بقيام زملائه الجنود بإشعال النار في المنزل وبجميع الجثث

نظرت تلك الفتاة الى أبيها وتساءلت في نفسها هل كان أطفال العراق إرهابيين لكي يقتلوهم ويغتصبوهم دون رحمة وبلا إنسانية؟ ومتى كان السلام ينتشر باغتصاب الأطفال وحرق جثثهم بهذه البشاعة؟

عزلة مريم

إنَّه يفتقدُ مريم كثيرا فهي لم تعد تقف على أسوار الشمس عند الشروق لتطلق كلماتها للنوارس والعصافير،ولم تعطِ مفاتيح رسائلها لخطاطيف المنازل مرةً أخرى لأنَّها توقفتْ عن إرسال القصائد المذبوحة إلى القمر، إنَّ مريم انقطعت عن كشف أسرار لونها الأزرق وعن ستار عشتار المقرّب من الرب،وحتى نغمات صوتها قد سكنت من الاهتزاز والدندنة بأغنيات الربيع القادم من السماوات الخُضر

فما أقسى العزلة عندما تكون سجنا مؤبدا تختاره بديلا عن الموت،وما أرزء الرحيل حينما تجده مسلكا وعرا إلا إنَّ الظروف ترغمكَ على عبوره وتجبركَ على ترك ذكرياتكَ تفترسها عقارب المقابر!كان يعرف أنَّها تعاني من سموم بيئتها الغارقة بالتفاهة والجهل،واضطراب محيطها العالق في نخاريب المدينة النازفة بالخيبات والإهمال،لذلك كان ينظر إليها من بعيد ويقرأ أزمات أحلامها،ويفك طلاسم مأساتها دون أن يفصح لها أو يبين معرفته بتلك الأسرار،لكنَّ غيابها المفاجئ جعله يرتعب من خطرات الرحيل، وأمسى يهشّ حشرات الهواجس المزدحمة حول خدوش روحه كونه يخاف نواجذ الخسائر تخطفها غفلةً منه في ليلةٍ مظلمة

حتى إذا ما وقف قلبه حائرا على بوابات السهر وسحائب مخاوفه تقذف على رأسه أسئلةً نازفة كما الأجنحة المبتورة ليجدَ في كل ريشةٍ مكتوب عليها أين رحلتْ مريم؟ عندها قرر أن يذهب لرؤيتها ويتحرى عن سبب اختفائها،فطرق بابها والحياء يلسع خديه وأصابعه،إنَّه لا يعرف كيف يصنع عُذرا تتقبله مريم بسؤاله عنها فهي لا تعرفه بمثل ما يعرفها هو! عندما رأته قالت له بتلكؤ واستغراب تفضل...ماذا تريد؟ نظر في عينيها بحنوٍ وإشفاق وكأنَّه رأى فيهما ملكوتا بلون القهوة تتفجر هضباته أنوثةً عفيفة،وتحترق شواطئه بطوفان من المواهب المتوقدة،فقال لها أنا أحد عشاق قلمك ومن الموقّرين لريشتك وحنجرتك الذهبية فهل مسموح لي بالاقتراب من عالمك الأنيق؟ فقالت له نعم مسموح أهلا بك تفضّل ودعته لفنجان قهوة في حديقة منزلها تقديرا لذوقه واهتمامه

كان يمطرها بآيات الإعجاب،وينثر وجهها بأزهار الاشتياق والتوجس من الفراق ويحكي لها عن انبهاره بقصصها وقصائدها ولوحاتها وجمال صوتها الرخيم،أما هي مازالت لم تصدّق وجود شخصٍ مهتمٍ وعلى مستويٍ عالٍ من الثقافة والتهذيب،وهل يا ترى يوجد مثل هكذا نوع من البشر في بيئتها التي تعجُّ بالبلهاء والجهلة،فبادرها محتشما بسؤالٍ عقيم قائلا لماذا غبتِ يا مريم واحتجبتِ عن الالتقاء بالناس ومخالطتهم؟ فقالت أنا حمامةٌ مونقةٌ وهديل قصائدي لا تفقَههُ

الغربان المتجمهرة في هذه البلاد! أنا نغمة عشقٍ هربتْ من حنجرة القمر فسقطتْ على أناسٍ ينفرون من الحب ويتقززون من الموسيقى! فحين انسحبتُ عن هذا العالم ليس هروبا أو جنونا أو اكتئابا بل وجدتُ نفسي عصفورةً تزقزق لقطيعٍ من الثيران،وزهرةً جوريةً يذبحون رأسها كي تفوح عطراً في مجالس قومٍ يفضلون رائحة الدم! فالناس هنا تم تصنيعهم لسدّ فراغات الحرب،وعبثوا بعقولهم فأدلجوها لتكون على مقاسات منافع الكهنة وأرباب السياسة،فما فائدة أن تكون عبقريا موهوبا وسط أناسٍ يتعاطون الغباوة برضاعات اصطناعية!

فقال لها مُتحسّراً لا تحزني أيتها المليكة المعظمة،ولا يغتمّ خاطرك يا أميرة بابل أنا سوف أقرأ جميع كلماتكِ،وأسمع جميل ألحانكِ فلا تغيبي عنّا ولا تخلعي نفسك عن دائرتنا فنحن لك عاشقون،وصار يتوسلها بأسمى ترانيم الحب ويرجوها ألا تختفي شمسها مرة ثانية

وخلال ذلك تفاجئ مستغربا حيث وجد نفسه جالسا في حديقة منزله وحيدا وفنجان قهوته مازال ساخنا،ثانيا أنَّه لم يعرف أين يكون بيت مريم غير أنَّه في تلك اللحظات كان يقرأ كتابا للأديبة (مي زيادة) وما كان الحديث عن العزلة والابتعاد إلا قرارا اتخذه هو على نفسه قبل عدة أيام.

مكاشفة فوق الجسر

وجدتهُ في نهايةِ الجسرِ العتيقِ،وقد امتلأتْ سوانحهُ بالخذلان والألم،وعن قربٍ تعلو طلعتهُ نوائحُ وجههِ الحزين كمن أضاعَ صبره وعزائه في لحظةِ وداع،فأنا أعرفهُ هزيل الإحساس سريع التأثر وينظر للأشياء من ثقبٍ سماويٍ يكشفُ له تفاسير ما التبس على نظر الناس وبصائرهم،حاولتُ أن أزيحَ قشورَ النكدِ عن ملامحه وأتذوقُ ثمالةَ حزنهِ فقلتُ له ما الذي أصابَ قلبكَ وخدشَ ذاتك ليبدو مظهرك بكلِ هذه الظلام؟ فقال والدموعُ تحرقُ عينيه لقد ذبحوها ظلما ثم أراقوا دمها فوق أحضان الأرض دونَ أن تُجرحَ طهارتهم أو تُكْلم كرامتهم! هؤلاء الذين لا يحترمون المخلوقات الرقيقة يأكلون الحمام ويقطعون الورد ولا يقيمون وزنا للجمال فهم لا يستحقون العيش في إنسانية هذا الكوكب

راعني كلامهُ وشدّني الفضول إلى أن أعرفَ مقاصده فقلتُ له ومن هي التي ذبحوها يا رجل لقد أخفتني؟ فأجابني والاستياءُ يتساقطُ من ملامحه أنا وجدتُ رأسها على هذا الجسر تلعبُ به الريحُ وتسحقه أقدامُ المارةِ أسخن الله أعينهم كم هم قساة هؤلاء البشر! فقلتُ له أنا لم أرَّ شيئا ولم يحدثْ أن تحدثوا عن

حصولِ جريمةٍ على هذا الجسر،فالأمرُ طبيعي والجميعُ هنا هادؤون فأيُ رأسٍ وأيُ جريمةٍ تتكلم عنها؟ فقال لي تعال سوف أريكَ هذا الرأس ففتحَ كفيه وإذا بها وردة حمراء ملطخة بالتراب وقد أنهك قواها الذبول! لكنَّ أغرب ما في الأمر إنَّ تلك الوردةَ هي ذاتها التي مازلتُ أحتفظُ بها قبل سنةٍ حين وجدتها مرميةً على الجسر نفسهَ.

جفاف عاطفي

ها قد ودّعنا القمر ليسيرَ الى كهفةِ عند أطرافِ الفجرِ،وسكنتْ النجومُ من مداعبة أحلام العشاق،وانقضى وطرٌ من الليلِ حتى صارَ يهمُّ بالرحيل ومازالَ هنالك عاشقان تتغازلُ شفاههما كفراشاتٍ تغتسلُ بالندى

كلماتٌ تفكُّ ضفائر الأشجار،واعترافاتٌ تذوبُ كالسّكر فوق ألسنتهم الضامئة،حرّك كفيه حاولَ أن يتحسسَ وجنتيها بأصابعهِ المرتعشةِ فأحسَ بنسيمِ أنفاسها يقطّر حروفا خجولةً وعاطفةً تتسربُ من عينيها المغمضتين،قرّب شفاههُ من مسامعها وهمسَ لها باعترافٍ صادق،أنتِ حبيبتي وسأبقى أحبك حتى لو تفكّك هذا الجسد وغدوت في ذمة التراب،ضمها إلى صدره بحرارة وتعانقا في لحظةٍ تجمّدتْ فيها الأنفاس،وارتفعتْ بها قلوبهم إلى ما فوق الحناجر،وكأنَّ ملائكةَ الليلِ صارتْ تصبُّ على عواطفهم لحنا يتسربُ من أثداء قثارة وذابا في عناقٍ عميق

وبين تلك اللحظات الدافئة وإذا بكفّين تحاولُ سحبَ حبيبته من بين ذراعيه بقوة! تشبّثَ بها حاولَ أن يطوّقها بكل ما أوتي من رغبة لكنَّه عجز عن الاحتفاظ بها،بعدها شعرَ بهزةٍ مذعورةٍ

تخضُ جسده فتح عينيه وإذا بأمهِ تجذبُ المخدةَ من بين أحضانهِ وتقولُ انهض فقد أشرقتْ الشمسُ وأنتَ مازلتَ تحضنُ وتقبّلُ في هذه المخدة المسكينة.

المحامي المخبول

منذ أول يومٍ دخل فيه المحكمةَ وهو يكابدُ فظاظةَ الندمِ،ويلعنُ الوقتَ الذي أصبح فيه محاميا في حين أنَّه ومنذ طفولته لم يستطع أن يحمي مشاعره وقلبه،ولا يريد أن يقحمَ ذمّته بمعترَكِ التشاجر الأعمى والتجاذبِ المستمر الذي تُجدّده الحاجةُ البشريةُ للتنازع،فهو مازالَ يعالجُ روحه بالتجاهل ويجاهدُ شعوره بالأكاذيب كي يتقبلَ الواقعَ ويوافقُ على ذلك البؤس الذي وجد نفسه غارقا فيه

وقف في باحةِ المحكمة ونظراتهُ تتصادمُ بغرابةٍ مع تلك الوجوه المنتشرة في جميع الأروقةِ والقاعات،وما فتأتْ خواطره تذهلها تلك المظاهر والمقاصد العدائية التي يضمرها هؤلاء الناس لبعضهم،فهو يعرفُ أنَّه لا يمكن لأي شخصٍ القدوم بالضرورة لهذا المكان إلا إذا كان جانٍ أو مجّنى عليه مدعٍ أو مدّعى عليه أو شاهدا أو مشّهود عليه إلا إنَّ ذلك المحامي المسكين يحسب وجوده في كلتا الحالتين أما مقيد بينهما أو مشارك مع أحد الأطراف في مقابل حفنةٍ من الدنانير!

جلس على مصطبةٍ حجريةٍ وصار يقضم أظافره ملا وحيرة،إنَّه لا يريد أن ينتمي لهذا العالم المليء بالعداوات والمشاجرات والخلافات والمظالم والتباغض والمجرمين والمذنبين والنصّابين والمدّعين زورا والسرّاق ومغتصبي الحقوق! إنَّه لا يريد أن يضع نفسه طرفا بين متخاصمين أو يعاضد الأول على حساب الآخر بغض النظر مع من يكون الحق!! لأنه يرى لا بدَّ من وجود خطأٍ عامٍ في ممارسة أغلب حالات الدفاع،أي أنه لو كانت هنالك دعوة مقامة بين معتدٍ ومُعتدى عليه بين صاحب حق وآخر مفترٍ وفي المقابل يوجد محامٍ مع كل طرف وكلٌّ يريد كسب دعواه واغتنام مفازة الموكّل حتى لو كانت باطلة،فهنا لا يوجد اعتبار لضياع الحقوق بقدر المراعاة والاهتمام بالحصول على الأموال التي توضع أتعابا للمحامين الذي أحدهما نصر الباطل وساعد مذنبا!

أراد أن يهرب من ذلك المكان ويعرض عن تلك البيئة الطافحة بالشّقاق والعداوة ويعهد على ألا يعود مرةً ثانيةً،وإذا بأحدهم جاء وعيناه محمرتان من البكاء وعلى وجهه تعلو سحابة من البؤس والاحباط وقد همس بإذنه قائلا لقد أخذوها منّي تجاسرا وظلما،لقد سرقوا سعادتي وأحكموا على قلبي بالكآبة والعذاب! بعد ذلك رجع خطوتين وقال له بنبرة تنزف بالانكسار ألست محاميا وتعرف كيف تسحب المظلوم من

زجاجة العقاب؟ ألست أنت من الذين يتناطحون فيما بينهم ويمكرون بأقصى درجات الدهاء والمراوغة لكسب قضايا موكليهم؟فارشدني إذن لأي وسيلةٍ أستعيد فيها حقّ طفلتي التي اغتصبوها وقتلوها في وضح النهار؟ إنَّ قاتلها في هذا اليوم قد حصل على البراءة! وأخرج من جيبه صورةً صغيرةً بحجم الكف لطفلته المغدورة وصار يُريها له

عندما رأى تلك الطفلة وهي تبتسم ببراءةٍ ساحرةٍ وفي وجهها تتورد أوراق الجوري بل أرق وأهيف،شعر بحرارةٍ تصاعدتْ إلى رأسه وتشنجت أعصاب وجهه فسحب تلك الصورة من يد الرجل وصار يحمَلق فيها مصدوما ويصرخ بصوت عالٍ كيف يمكن أن يغتصبوا هذه الحمامة الرقيقة؟ كيف استطاع ذلك المجرم المتوحش أن يقتل هذه الفراشة الناعمة؟ حتى انتبه جميع من حوله على إثر صرخاته وصار يمشي بخطوات متتابعة نحو باب الخروج وهو يصرخ حزينا كيف...وكيف إلى إن غادر بناية المحكمة وخلفه الناس يتهامسون ويضحكون.

الديك المغدور

كـان ابـنُ أختـي مولعـا بالحيوانـات منـذ طفولته،ويسـتأنس بمعايشـتهم ومشـاركتهم الحيـاة اليوميـة،فهو يعتبـرهم أصـدقائه المفضّـلين،وأحبّته المؤنسـين الـذين يجـد بمصـاحبتهم الألفـة والسـعادة،فهو بـرغم صـغر سـنّه إلا أنَّـه يعشـق القيـام بـدور الراعـي الـذي يجـود بالعطـاء ويهـب الرعايـة والاهتمـام للآخرين،فمـا أجمـل أن تشـعر بوجـودك يحـدث فرقـا فـي حيـاة أحدهم،وأكرم به من حبٍ ينمو بـلا مصـلحة أو انتظـار المقابـل والثمن

أتذكر أنَّه في أحد الأيـام اشترى ديكـا صـغيرا وتكلّـف بتربيتـه واعتنى به حتى بلـغ أشدّه وصـار ديكـا كبيرا،فكـان ذلك الـديك دائما ما يتخذ مكانا مرتفعا للنوم وفي النهار يركض فـي البيت ويأكـل ويلعـب مـع الأطفال،فعـاش بيـنهم كأنَّـه فـردٌ مـن العائلـة،وفي ذات مـرّة دخلـتُ علـى بيـت أختـي وقـت الظهـر فوجدتهم منشغلين في تنـاول الغداء غير إنَّنـي أُصبتُ بـالحيرة والإشفاق على ذلك الطفل العاشق للحيوانات،فقد كـان منزويـا في الغرفة ويبكي بغزارة فقلت له لماذا تبكي يـا صـغيري بكل هذا الألم؟ ولماذا لم تشارك أهلك الغداء؟ فقبل أن يجيبني قالت

لي أمه أنه يبكي لأنَّ أباه قد ذبح ديكهُ وها نحن الآن أوشكنا على الانتهاء من التهامه فقد كان ديكا دسما ومليئا باللحم
نظرت إلى الطفل وكأنَّني رأيتُ في عينيه قصائد ومرثيات يندب فيها أليفه المذبوح،فهو لم يشاركهم الغداء لأنَّه لا يستطيع أن يأكل صديقه الأعز!! فتقربت منه وحاولت مسح دموعه وقلت له آه عليك يا صغيري سوف تتعب كثيرا في حياتك ما دمت تمتلك هذا الإحساس المُرهِق الذي ورثتهُ عن خالك !

كفوف كلدانية

كيف يمكن أن يكونَ المرءُ مجنونا؟ ومتى يتوجب القول أنَّ الجنون حالةٌ ناهكةٌ تندرج في لائحة الأمراض والعلل؟ وهل إنَّ الهلاوس والتخيلات عادةً ما تكون ضربا من الجنون؟ فأنا أحلم كثيرا وأتخيل قصصا أسطورية وأعيش في كثيرٍ من الخرافات والخزعبلات كأنَّني في مسرحٍ سريالي لم يتوقف منذ ثلاثين عاما

ومن أغرب غرائبي أنَّني أمتلك كتلةً جسديةً مُتزنةً وغلافا خارجيا هادئا وكل من يراني يحسبني جذعا مدّلهمّ الملامح ومنسيا على الهامش،غير إنَّ في داخلي فيضانات مشتعلة بالهوس والكوارث التاريخية التي تضاجعها الشكوك وفي كل ثانية تُجهض في رأسي لقائط وشياطين،ومن حُسن حظي أنَّني أسكنُ على مشارف مدينة بابل الأثرية،المدينة المقدسة التي سكنتها الآلهة،وأرضعت العصور فاكهة الخلود! وإلى الآن لم أفهم بعد ما الذي يحدث بيني وبين بابل؟ وما هو نوع الجنون الذي نمارسه أنا وهي؟

فكلما أرتقي سطح البيت وأرى أبراج بابل تتسامق عشقا من بعيد أشعر أنَّ قلبي كرة نارية مجنحة تدور حول منائرها

وتزرع قصائدي اليتيمة على أكاليل ضفائرها،وحينما يبرق اسمها في سماوات ذاكرتي تلسعني سياط مردوخ وتدفع جمجمتي إلى مجمرة البخور الإلهي لأجد نفسي في كل ليلةٍ طائرا في حضرتها ومعشعشا بين شقوق معابدها أو على رموش قلاعها الملكية،أنا أشعر بالجنون! أنا أرى كفوفا شفافة تحملني إليها على خوافق الظلام ثم تقذفني مطرا جنوبيا على الأسقف والأشجار،وكلما حاولت الهرب أجدني شيئا رقيقا يلتصق على جدرانها وأبقى هناك أسيل على مهل كأنَّني حبة ثلج باردة تذوب في فم عذراء كلدانية

أليس جنونا أن أركض بين شوارعها كالمهبول وأرقص على أرصفتها مُتخيلا أنَّني أشارك أجدادي احتفالات الأكيتو؟ أليس جنونا أن أدخل في حرم الاساجيل واسترسل باحثا عن ذلك التنين الحجري لأهب له كاهنا علويا يتعبدُ بالحب ويناجي مردوخ بأسمائه الخمسين أو أغفو لساعاتٍ طويلةٍ على مذبح القرابين عند الإله نابو وعند الأم المقدسة ننماخ دون أن تخطفني خفافيش الدهشة؟ أليس جنونا أن أضع آذاني على التراب لأسمع أناشيد أسلافي الكلدانيين تنادي أن أحفر برموشي وقلمي وبمعاول أحلامي لأستخرج أناجيلهم وألواحهم المسمارية كي أُحاجج بها الدهر وأُدين فيها سيوف الصحراء التي قطعتْ أعناقهم دون وجه حق؟ أليس من الجنون أن أخلع عن دماغي كل أكاذيب البدو السماوية

وأستنكر تزويرهم لهويتي البابلية واستبدالهم لغتي الكلدانية وفرضهم علي دينا وعرقا وسلالة وعرفا وسجية وتقاليد وأرومة وأصلا ليس من جذوري ولا تربطني به سوى الافتراءات والغش والتلفيق وذلك بما مارسهُ علينا أصحاب الأباعر وحراس الوهم! لذا أنا لا أشعر بوجودي إلا في ديار أجدادي وبين أطلال آثارهم الباقية،ومازلتُ أركضُ بين تلك الخرائب لعلَّني أسقط وأعود إلى ذلك الزمن الجميل.

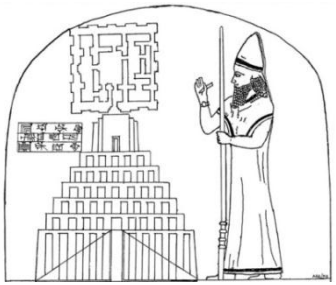

حين تتحول المستشفى لصومعة كاهن

كان أكثر ما يرعب صديقي سلطان ويصيبه بالاكتئاب والجزع هي المستشفى وما يدور في داخلها،فهو يعتبرها محطةً للمقامرة والحظ،إما أن تخرج منها مُعافى نافذا بعمرك أو ميتا تحملك الآلةُ الحدباءُ إلى المأوى الأخير! ويكره مشاهدة المرضى والمعلولين وهم يستنجدون بسماسرة القبور العاملين بمعاطفهم البيضاء لحساب ملاك المنايا،ويشنأ من أفعال المنتفعين من أوجاع الضعفاء،إنَّه يشمئز من رائحة التعقيم وزناخة الأدوية لأنَّها تذكّرهُ بالموت،ودائما ما يتنبأ بطوالع الشر ويعتقد إنَّ حوادث الدهر يمكن أن تكون رسائل مشؤومة تأتي على شكل وجعٍ صغيرٍ يدخلك في متاهاتٍ اللاعودة ويغشاك بشعورٍ مقرفٍ تهربُ منه بأقصى طاقتك وتنقبض موسوسا منه،غير أنَّك بسوء سعدك تجدُ نفسك سقطتَ بين مخالبه وأصبحتَ فريسته المأسورة! وهذا ما حصل مع سلطان فإنَّني رأيته في ردهة الطوارئ مُستلقيا على سريرٍ بائسٍ ويفتش في وجوه الناس وحيدا تحسبه قد أضاع أحدهم أو ينتظر أحدا يأتي ويسأل عنه

كأنَّني أسمع أفكاره تقول أيها الناس إنَّ أقسى أنواع الغربة هي أن تجد نفسك منعزلا في وطنٍ يزدحم بالمزيفين ويتعفن بمتصنعي الودّ بعد إن كنت لهم ظلا وشمعه! فأسقمتني حالته وأوجعني منظره فأسرعتُ نحوه وتجاذبنا أطراف الكلام فوجدته يسبحُ في تيارٍ معاكسٍ ويعيشُ في عالمٍ سماويٍ لم يكتشفه أحدٌ غيري،فهو طفلٌ بعمر الأربعين،وكاهنٌ يسكن رأسه أنبياء يهلوسون! كان يستخدم مفرداتٍ مبهمة،وإشاراتٍ عويصة،وكلّما سألته يُجيب بغيره،فمثلا التمستُ منه سؤالا وقلت له أنت ممَّ تعاني وما الذي أتى بك لهذه المشفى؟فأجابني وقد أقطب حاجبيه حزنا وقال لي أتعلم إنَّ الكلاب مخلوقاتٌ طيبةٌ وتمتلك أفخر أنواع المشاعر ولا يضاهيها جميع من على الأرض بالمحبة والوفاء؟ لكنَّ الناس والكهنة أنكروا ذلك الحب وألصقوا بهم تُهما وأطلقوا عليهم إشاعاتٍ ليست من صفاتها وسجاياها،فالكلاب أقدس من تلك الاتهامات والتشبيهات

أذهلني جوابه وظننتُ أنَّه تخرّف قبل الأوان أو لم يسمع سؤالي جيدا فكررتُ السؤال مرةً ثانيةً وقلتُ يا صديقي أنا أعرفك منذ الطفولة تكره أجواء المستشفيات ولم أعهدك بزيارتها في يوم ما فلماذا أنت اليوم هنا،أمريض أنت؟ تبسّم ساخرا وقال ليس للكلاب ذنبٌ لو تخلّت عن طيبتها وتوحشتْ،وليس عليها جناية أو مخالفة لو رأيتها تهاجم أي

شخص يقترب منها أو يمرُّ بجانبها،فهي في ذلك تحمي نفسها وتحافظ على وجودها من الاضطهاد والاعتداءات الوقحة من بني الإنسان

أتعلم إنَّني مخذولٌ وأشعر بالخيبة لتلك المخلوقات الشفوقة العطوفة التي أرهبتها قباحة نفوسنا وأفسدها طغيان بيئتنا المتشددة فصارتْ تردُّ بأسنانها ومخالبها بدلا من عواطفها ومشاعرها! فأنا أتذكر قبل أيامٍ رأيتُ مجموعةً من صبيان الحي القساة يضربون كلّبا مريضا بالحجارة الصلدة والعصي القوية،يضربونه بلا رحمة وهو أسيرٌ أعزلٌ وجد نفسه عالقا تحت سياط أسوأ المخلوقات على وجه الأرض وأخبثها! يا صديقي كنتُ أراهم مستمتعين بممارسة شذوذهم النفسي وسلوكهم اللاإنساني بضربه وإهانته تعسّفا وظلما،فما أسخف ممن يدّعي الفضيلة والرحمة ويتمنطقُ بشعارات التسامح والإحسان وقد تفاضحتْ جيناته الحوشية وانكشفتْ سوءتها بأفاعيل أطفالٍ توارثوا الشرَّ والهمجية عن آبائهم!

فهالني كلام سلطان واعتقدتُ أنَّه يمرُّ بأزمةٍ نفسيةٍ أو يعيش حالةً من التجلي الفكري والروحاني غير إنَّ كلامه بكلتا الحالتين قد سبّبَ لي تهيّبا وخشية فأوجبتُ عليه أن ينهي حديثه وغادرته بلا وداع،ومن هناك سألت الطبيب عن حالة سلطان فأخبرني أنَّه تعرض لعضة كلبٍ غائرةٍ في أعلى فخذه سببت له نزيفا مهراقا وألما شديدا لم نستطع السيطرة عليهما

بسهولة،حينها عرفتُ أنَّ سلطان بكلامه المُلغّز كان يريد أن يقول أنَّه مسامحٌ لذلك الكلب الذي عضّه،وأنَّه لم يحمل في قلبه أي غائلةٍ أو ضغينةٍ عليه،فهو في كل الأحوال يبقى مخلوقا تحركه غريزته الحيوانية لكنَّ الناس هم من جعلوا تلك الكلاب عدائية ومتوحشة بما رأته من قباحة النفوس وسوء المعاملة.

الحيوان لا يصفع أولاده

الطفلةُ الصغيرةُ مازالتْ تصرخُ فوق دراجة أبيها البخارية وهما يهمّان بالانطلاق،أنَّها لا تريد الذهاب إلى المدرسة ورافضةً تماما الدخول في هذا المعترك المرير،كأنَّها تجدُ في غرفة الصف مكانا للرهبة والفزع،والتعامل مع المعلمات والزميلات تهديدٌ من نوع آخر

كنتُ على مسافةٍ قريبةٍ من ذلك المشهد التراجيدي بين الطفلة وأبيها،فهو كان يقاتل نفسه ويحرق حطب روحه احتجاجا على تصرفات ابنته العنيدة وهي في كلِ ثانيةٍ تزداد تعنّتا وممانعة بالاستجابة لأوامر والدها في الذهاب إلى المدرسة،وكأنَّ هنالك وحشا ضاريا ينتظرها في غرفة الصفّ،كنتُ أرى في عيني أبيها قصص الخيبة والانكسار،فهو لا يريد أن ترى ابنته ما رآه هو في حياته من عذابٍ ومعاناة،ويتخوف من أخطاء أهله أن تتكرر مع من كان سببا في مجيئها إلى هذه الحياة البائسة،وبعد إن جرّب معها جميع أساليب الرجاء والإقناع وقدّم لها أشكال الوعود المغرية على أن تُغيّر قرارها وتتخلى عن هذا العناد إلا أنَّها ظلّتْ متمسكة بموقفها بإصرارٍ طفوليٍ أعمى! فما كان عليه إلا أن يرفع كفّه عاليا ويضربها

ضربةً قويةً على خدها أسقطتها من على تلك الدراجة إلى الأرض دفعة واحدة وهو يسبّ الذات الإلهية على ما أعطاه!
رأيتُ تلك الطفلة المسكينة قامتْ مرعوبة وعلى خدّها آثار أصابعه تستعر وجعا،وركبتْ خلف أبيها على الدراجة وهي تخّنق صوت بكائها بكلتا يديها وذهبا صوب المدرسة،ذهبتْ تلك الطفلة وقد تركتْ في ذلك المكان أسوأ ذكرى سوف تبقى تلازمها طوال حياتها،سوف تدوم لعنة ذلك الموقف وتشاركها المرار على مدى سنوات عمرها المقبلة! ذهبتْ وتركتْ في داخلي ألف سؤال،ودفنتْ بوجداني قوافل ثقيلة من العتب على قسوة الوجود وفساد الحياة التي وجدنا أنفسنا فيها نعاني ونشقى،لكنَّ ما هوّن علي هول تلك الحادثة هو إنَّني مازلتُ أعزب.

ذيول الكهنة

كان الواعظ في المعبد المجاور يصرّ على أن يرفع مستوى الصوت لأقصى درجةٍ من المكبرات المنتشرة على جوانب البناية،ويصرخ عاليا عندما يتجمهر الناس حوله وهو يطلق عليهم فلول مواعظه المنسوخة ووعيد الآلهة المهووسة بحرق الناس! كان يحذّرنا بلغةٍ مرعبةٍ وهو يصف العقارب والثعبان الأقرع والرمال المتحركة وحفلة الشواء التي تنتظرنا في القبر! كان ينذرهم من سطوة السماء وما فيها من محارق ومجازر وملائكة غلاظ موكول لهم تعذيبنا والتشفّي بأجسادنا الضعيفة

أتذكر عيون الجالسين كانتْ متّسعةً وأفواههم فاغرة ويخشاهم ارتجافٌ وهلع،أما أنا لم أكن خائفا من قصصهِ البوليودية بقدر ما كنتُ مُعجبا بخياله وطريقة كلامه في رسم ذلك الإرهاب المقدس،لقد كان خبيرا بفلسفة الموت،وواثقا بقوله إلى حدّ التعصب وهو يُصوّر الفواجع التي سوف نمرُّ بها فيما بعد،وكأنَّه مات قبلنا ألف مرة وعاد يروي لنا أحداث ذلك الفيلم الفظيع! كنتُ مُعجبا بتمثيله الجّاد حين يتصنع البكاء وحركات المسكنة التي يستخدمها ليظهر للناس خطورة الموقف،وأنَّه عارفٌ بأهوال الآخرة أكثر منهم،وما عليهم إلا

أن يطيعوه ويسلموا لـه مفـاتيح عقولهم ومقاليد حيـاتهم لينّجوا مـن أفـران الإلـه الـرحيم ومـن مراجـل السـلق والحـرق الـذي أعدها لهم مسبقا

كـان يبكـي بتصـنّعٍ مـذهلٍ وهـو يستوضـح لهـم أسـباب الفقـر والهوان وتلازم الشّقاء والحرمان الذي وجدوا أنفسهم غـارقين فيـه ويعـانون ويلاتـه،فكان يقـول لهـم السـبب هـو تهـاونهم فـي إقامـة الطقـوس التعبديـة وتقصـيرهم الفـادح بـدفع ديـون الـرب الذي يطالبهم بتسديدها منذ أول يوم جاؤوا فيه للحياة! بل جعل سـبب شـقائهم وضـنك معيشـتهم هـو أنَّهـم لـم يتّبعـوا الكـاهن الأفضل من بين الاف الكهنـة فـي البلاد! فقام أحد الحاضـرين وقـال لـه ومـاذا عسـانا نفعل كـي نتدارك أنفسـنا ونعيش بحـالٍ أفضل؟ فقال الواعظ الناس فقراء في الدنيا لا يهم والحيـاة بـلا كرامـة لا بـاس بهـا المهـم هـو أن تبقـى النـاس تحـت عباءتنـا وتطيع الكهنة،وعاد مُستكملا صراخهُ بوصـف الرعـب الإلهـي الموعود.

النساء يعشقنَّ الوحش سرّا

قال لي أنَّه يقاسي آثار الصدمة ولم يصدّق سكنات النساء وأسرار جنوح رغباتهنَّ وميلان نفوسهنَّ إلى الغرابة، فهل يمكن أنَّ هناك نوع من البشر تُثيره رائحة الانفعال ويهيّجهُ منطق القوة حتى إن كان منطقا فاسدا؟ فقلتُ له وما الذي يجعلك تقول هذا فأنا أعرفك رجلا نحريرا وتلاحظ تلك المسالك بعيون قلبك،فهل صادفت بمن عبث بهدأة أفكارك وصفاء روحك؟ فقال نعم...لقد عشتُ مشهدا فنتازيا في الباص هذا اليوم،حيث كنتُ جالسا في النهاية وأمامي بكرسي واحد تجلس فتاة باهرة الأكتاف وضيئة الملامح تلفُّ حجابها إلى ما تحت شفتها السفلى بيضاء وتهيمن إطلالتها بأنوثةٍ متغطرفة،أما الركاب الآخرون فموزعون على جميع الكراسي ومعظمهم من النساء ولم يكن في الباص رجال سواي وشخص واحد في المقدمة تظهر عليه سمات الشقاء والدمامة أحول العينين متهدل المشافر متسخ الثياب وتركن سيجارةٌ خانقةٌ في نهاية شفتيه المليئتين بالسواد والشعر الكثيف! كانتْ الباص تسير بإبطاءٍ مملٍ ووجوه الناس متهدلة بسبب حرارة القيظ،وكأنَّنا متجهون نحو بوابات جهنم

فقلتُ لـه ومـا الغريـب فـي ذلـك فجميـع مـا ذكـرت لا يسـتحق الاسـتغراب؟ فقـال وقـد سـبقتْ إجابتـه ابتسـامةٌ سـاخرةٌ عنـدما وصلنا نصف المسافة ركبتْ معنا فتاةٌ غير طبيعية يغلب علـى هيأتهـا البلاهـة والهبـل،تتكلم بمفـرداتٍ غيـر متناسـقة تضـحكُ تارة وتغني وتبكي دون سبب،فصارتْ النساء في تلك الباص يستهزئنَّ بهـا ويتحرشنَّ فيهـا بكلمـاتٍ جارحـةٍ ومفرداتٍ نابيـةٍ ممـا أثـرنَّ توترهـا فصـرختْ بوجـوههنَّ وشـتمتهنَّ بأقضـع الشتائم

وفـي تلـك اللحظـة وثـب ذلـك الرجـل المقـذور علـى المـرأة الممسوسـة وصـار يضـربها بقـوة ويلكمهـا بقبضـتيه ويخنقهـا بـأطراف حجابهـا ويقـول لهـا كيـف تجـرؤين علـى الشـتم ولـم تحترمي الأكبر منك قدرا،فنحن نعاقب من يشتم نسائنا،وصـار يصفعها ويلطمها بعنف حتى طُبعتْ كفوفه على خديها وسالت الدماء من بين أسنانها وشفتيها وهي تتوسل بأن يتركها ويرحم ضـعف جسدها فهي لا تطيق وجع ضرباته! صمت صديقي لهنيهةٍ ثم قال لي أتعلم ما الذي أثار استغرابي؟ فقلت لـه أقسم أنَّنـي أكـاد أنتحب شفقةً علـى تلك المسكينة فهل توجد غرابـةٌ أكثر من توحش ذلك الرجل الحقير؟ فقال نعم...إنَّما أدهشني هي تلك المرأة الجميلة صاحبة الحجاب التي ذكرتها لك في أول الحديث

فعندما كان ذلك الرجل يضرب الفتاة المجنونة كنتُ أرى لحظتها ملامح المرأة المحجبة وهي تذوب إثارةً وإعجابا بما يفعله الرجل! كنتُ أرى شهوتها تسيل من حركات شفتيها وينضح ماء رغبتها من كل فتحةٍ في جسدها! لا أعرف لماذا بعض النساء يعشقنَ الوحش سرّا،وتستمتع بممارسة التجاذب الغريزي بين دناءة القسوة وشذوذ فطرتها الأنثوية؟ أتعلم أنَّها بعد إن أكمل ذلك المعتوه ضرب الفتاة الممسوسة وعاد إلى مكانه،رأيتُ تلك المحجبة قفزتْ من مكانها وجلست إلى جانبه وصارتْ تتملق له وتغازله بكلماتٍ غريبةٍ وتبادلا أرقام الهواتف على الرغم من أنَّه كان قبيح المنظر ونتن الرائحة ولا يمتلك من الرحمة والإنسانية ما يستحق!

قلتُ له وماذا فعلت أنت؟ لماذا لم تتخذ موقفا إزاء ذلك الظلم؟ فقال لي على العكس فأنا كنتُ أنتظر اللحظة المناسبة لكي أسقطه في شر أعماله،فعند وصول الباص لأقرب حاجزٍ للشرطة قمت بالتّبليغ عن ذلك الرجل المتهور وشهدتُ على اعتدائه على المرأة المريضة فاعتقلته الشرطة،لكنَّ ما أذهلني أكثر هي نظرات تلك المرأة المحجبة لي على طول الطريق وكأنَّها تشتمني وتلعن الساعة التي صعدتُ فيها معهم في تلك الباص.

طقوس محرمة

لطالما كان ذلك الشاعر البليد يجلسُ وحيدا على الجرّف العاري يمشّط الأمواج بترانيم العتاب،ويوقد قصائده بخورا في عيون الشمس ليجد نفسه يستحسن مُجالسة النهر ويسافر معه إلى خارج حدود الوهم،وفي ذلك المساء البابلي الأثير حيث بدأتْ مواقد الآلهة تتوهج في خواطره بالتناوب،وصار يربط أجراس همومه بثياب الغيم ويمزق من السماء أوراقا ليكتب وصيته الأخيرة،كان يُخبّئُ ذنوب طفولته بصناديق صدره،ويُقاسي أمراض ذكرياته بتقبيحٍ وسهر،إنَّه اعتاد أن يقرأ قصائده للماء ويدفن أحزانه وعذاباتهً على أكتاف المنحدر ليعود فارغا من نجاسة التوقعات وآثام الماضي

كان يصنّع موعدا وهميا مع المحبوب عند النهر،ويتأنقُ شوقا وفي خياله تنمو حكايات القرنفل والغرام،فمن عاداته كان دائما ما يغمض عينيه عن رياح الواقع ويغمس كفوفه وقدميه في الماء ويقوم بتلاوة تعاويذ العشق،ويردّد مراثي السنين الضائعة،ولكم أبّكى العصافير شجون صوته،وألعج الفراشات سقام قلبه

وفي تلك اللحظات كان هناك شخص غريب يتابعه من بعيد ويراقبه باستمرار حتى أتعبه الفضول لاكتشاف غوامض تلك الطقوس التي يمارسها الشاعر مع النهر،ويتساءل عن تكرار أوقات اللقاء تحت جفون الجرف،وقف إلى جانب الشاعر وهو يسترق النظر من أوراقه ويستمع بمكرٍ وإصرارٍ لما يدندن من كلماتٍ مبهمةٍ فوق وجه الماء! كان الشاعر مُنشغلا بابتهالاته الغريبة،ومنقطعا بشكلٍ شبه تام عن محيطه وما يدور حوله،فقام الرجل بإمساك الشاعر من كتفه بكلتا يديه وصار يهزّهُ ببطء ويقول له ماذا تفعل مع النهر يوميا أيها المخبول؟ هل أنت مجنون؟ انتبه على أثر صوت الرجل فأدار رأسه نحوه واذا به يراه شرطيا يرتدي زيا عسكريا قام بتكبيل ذلك الشاعر واقتاده إلى السجن بتهمة ممارسة السحر في مكانٍ عام.

جريمة مباحة

بعد الليل... وفي بداية الضوء المُتدلي من خلف خرائط الكون،كانتْ هنالك عيونٌ استيقظت على وداعات الفجر المطرود من دائرة الليل،وشفاهٌ تسربتْ على قشورهنَّ مراراتُ العزلة،وبعد إن رجعت إلي ذاكرتي جلستُ،تثائبتُ جوعا وتثائبنَّ معي فراشات الغربة وقد طارتْ بعيدا عني لتغتسل تحت جروح الساعات،حاولتُ أن أزيح المشاعر الكئيبة فارتديتُ قناعي وفتحت بوابة الصباح فآنستُ دخان الأسئلة يتصاعد صمتا فاستنشقته مع حسرات الشمس التي أشرقتْ على ممرات الذاكرة وهي تنّفثُ صورا بغيظة اشترتها من الماضي الحزين

صرتُ أسمع خطواتي تترك ثقوبا في ظهر الأرض وأرى ملامحي أغرب من وطنٍ ما انفك يتقيأ جثثا وقبور،كان بيني وبين السوق مسافة لا تتعدى صوت انفجار من مفخخة عمياء،فتوجهتُ ذاهبا بخطواتٍ متثاقلةٍ إلى الخارج وفي قلبي تُمزّق مخالب الخوف من المجهول حتى وصلتُ الرصيف فوجدته عاريا وتربض فوقه أقبح مخازي السياسيين وهو على موعدٍ مزعجٍ مع الكادحين والمتسولين والحيارى،أرى البيوت

الخاوية قد هرِمتْ واستحالتْ لخرائب انتزع جلدها الرصاص وحتى وجوه الناس ألفيتها تترقب مسرعة وقد تلثمتْ بأوهام الديمقراطية الحديثة،حضرْتُ السوق وفمي مملوء بالعطش،حاولتُ الدخول مسرعا ولكن استوقفتني صرخاتٌ متتاليةٌ لمخلوق يتوسل بلغة المفجوعين،ركضتُ نحوه فوجدتُ ثلاثة أشخاص أحاطوه وأحكموا عليه بقبضاتٍ قوية،كان يسترحمهم بإذلالٍ مفرط على أن يتركوه حتى صار صوته يتقطع ألما ومن عيونه تتساقط بقايا كرامته وأحلامه،لكن ما كان من أولئك المجرمين إلا أن قيدوه وطرحوه أرضا وقد أخرج أحدهم سكّينا قاطعا ليذبحه أمام الناس

كانت أنظار ذلك المسكين تستعطف المتفرجين كأنَّه يقول لهم بخوف انقذوني من هؤلاء القتلة ولكن ما من مجيب فقلوب الناس تحجرتْ وما عادتْ تؤثّر فيها المناظر الحزينة،والأرواح باتتْ أرخص شيءٍ يُقارن في هذا الزمن وكأنَّ هذه المدينة جسدٌ أصابهُ الجفاف فتيبستْ بداخله الضمائر،وفجأة قام ذلك القتّال بوضع السكين فوق رقبته وذبحه من الوريد إلى الوريد فاندفع تيارٌ سريعٌ من الدم المسفوح فتلطخ المكان وتوترتْ فيه أشكال الموت المرعبة،إنَّهم ذبحوه ثم التفوا حوله بسكاكينهم فسلخوه وبقّروا بطنه!

أمـا أنـا أحسسـتُ إنَّ عيـوني غشـاها الهلـع وتجمـدتْ فكـاي فاصـطكتْ الحـروف علـى لسـاني! صـرخ كبيـرهم فـي وجهـي قائلا لماذا أنتَ مذهول هكذا ثم تبسّم ساخرا وقال بكم تريد من هـذه الذبيحـة وأشـار بيـده إلـى ذلـك الكـائن المطـروح علـى الأرض؟ أنا كنتُ مندهشا والكلمات تتهاوى من فمي فقلتُ لـه متلعثما أريد قلبـه...نعم أريد قلبـه كـاملا! وعلـى الفور تسـارع ذلك السياف القاسي واستخرج قلبه والدماء تسيل على كفيه ووضـعه فـي كيسٍ وأعطانيه،فأخذتُ الكيس والعجب يتعاظم في داخلي وكأنَّني لأول مرة أرى خروفا يُذبح.

هدية ثمينة

وقفتْ مع أطفالها الخمسة أمام باب الجامع تتوسل عطف المؤمنين،وتطرق أبواب ذممهم وضمائرهم في لحظةٍ تجردتْ فيها عن شموخ الأنثى المتعاظم في داخلها وعن كبرياء نفسها الوقور،فهي عابسةُ الوجه رثّةُ الثياب سمراء تفوح منها رائحة العوز وبؤس السنوات،كانتْ تحمل بيدها طفلا تسنده إلى صدرها والأخرى تفتحها للتسوّل والاستجداء،وأحيانا تمسحُ بها أكتاف كل من يمرُّ بجانبها

انتهى وقتُ الصلاة وغادر الجميع دون أن تحصل على شيء،بدأتْ الحيرةُ تأكل قلبها والهواجس المُبرحة تزرع في مخيلتها مخالب الجوع وأهوال الحرمان فكيف لها أن تطعم هؤلاء الأطفال،ومتى يأتي المُنقذ الكريم الذي سوف يرسله القدر ويجود عليهم بكسرة خبز؟

وقبل أن تستجمع أذيال الخيبة وبقايا انكسارها وتغادر كأنَّها لمحتْ شخصا ينظر إليها من بعيد وقد اتّجه نحوها،فأهلتْ واستبشرتْ وفي خاطرها تأمل أنَّه سوف يعطيها حتى إن كان عطاء قليلا،عندما وصل ذلك الرجل إزائها صارتْ تسأله بالدموع وتتوسل له بملامحها وصوتها وبكل ما تمتلك من

فنون التسوّل،نظر الرجل إلى أولئك الأطفال المهترئة نفوسهم بنظرةٍ مليئةٍ بالرحمة ثم مدَّ يده إلى حقيبته وأخرج منها شريطا لحبوب منع الحمل وأعطاها لأمهم ومضى في طريقه يجاهد عينيه لإخفاء دموعه.

تخيلات بعد منتصف الليل

كان يكتبُ لها بصدقٍ مفرط،ويتغزلُ فيها كأنَّها أغنيةٌ صوفيةٌ تتجسد بمليكةٍ كلدانيةٍ قادمةٍ من العصر البابلي القديم،كان عندما يُحادثها يشعر بالكلمات تمتزجُ بعسل شفتيها،فيسيل منها طعم سنواته المبللة بالإرهاق والضنى،وحين يشاهد صورها كأنَّ بنات الجن تستيقظُ في رأسه وتهبط ملائكةُ الشعرِ لتقيم على لسانه مجلسا يفوح بالغرام والغزل،فبالرغم من أنَّها تصّغرهُ كثيرا ولا تعرف كيف تفتحُ بوابات السجون المنتشرة على صحراء صدره إلا إنَّها ما برحتْ ترتشفُ من عيونه عصارة السهر،ومن مكانٍ بعيدٍ تمكنتْ من استعمار عقله وسيطرتْ على موانئ خياله وجميع أنهار قلبه دون أن تعلم فمرةً يجلس وحيدا ويوقد شمعةً صغيرةً في ساعةٍ متاخرةٍ من الليل ويضع صورتها قبالة عينيه ويبدأ بتأليف الخرافات العاطفية معها ثم يصنع من حباله الصوتية أجنحةً من الضباب ويغنَّي لاسمها مواويل جنوبية،ومرةً يحدّقُ في صورتها ويشعر أنَّ خياله يحلّق شوقا إلى شبّاك غرفتها التي تبعد عنه مسافة محيط وقارتين!

ومرةً يلاعبه الحنين بإظهار وجهها له في الحدائق والشوارع وعلى وآجهات البيوت ونوافذ السيارات وكذا في وجوه الناس وأوراق الشجر،كان يقف حائرا على جفن النهر وهو ينسجُ من ضفائر الماء فرسا أسطورية تركض أمامه وهي تحملُ حبيبته المهاجرة فيركض خلفها حتى يغوص إلى القاع ويغرق دون أن تنقذه عيناها،إنَّه يفقد صوابه وتستخفُ بمشاعره المسافات ومسببات الفراق ومازال يجود بمأساة عشقه وهو بين الحياة والموت.

محاكمة عمود

العمودُ المعذبُ الذي يقف مرتعشا بين شارعين مازلتُ أراه يكافح شيخوخته بإحساسٍ توقدهُ مشاعل التعلق بالبقاء،ويقاوم العواصف بانتحال عموده الفقري رقصة الأرواح المضطربة في جسدٍ ميتٍ،فهو برغم صلابة مظهره الخارجي الا إنَّ طبول الماضي مازالت تدمدم في جوفه،وترقص على رأسه عصافير المدينة ليكون أحد الضحايا الذين حملوا أوزار عبثية الوجود،ومتهما بريئا تحاكمهُ الحياة عن جرائم ليس هو مرتكبها

كان ذلك العمود قريبا من بيتنا وقد اعتدتُ على مراقبته بإمعانٍ صامتٍ وعلى الدوام استشعر متاعبه وأرى السنوات تتساقط من جوانبه كجثثٍ تحترق في الريح،وفي ضحى يومٍ جلستُ تحت ظلّه أُطارحه حكايات العناء وأُبادله الأفكار والأسئلة كانَّه من الأصدقاء المُعلّقين في أسلاك القدر،ولذلك صرت أسمع اختناق أنفاسه وخرخشة أسنانه وصدره حين قال لي تعبتُ من كل هذا متى أسقط وأستريح؟ وقفتُ أمامه وحمّلقتُ على جسده الخاوي وقلت له وما الذي يتعبك وأنت الحديد الذي أتذكره منذ كنتُ طفلا يقف شامخا كالطود في هذا

المكـان؟ فأنـا أترصـدك علـى مـدى السـوالف مـن العمـر وقـد شـغلني أمـرك، فقـال مسـتغربا وكيـف يشـغلك أمـري وأنـت البشري المُتميز بالقسوة أكثر منّا نحن الجمادات المتحجرة؟ فأنتم تتقنون فنَّ القتل ومحاربة بعضكم بوحشيةٍ نائرة،فقلْ لـي بمَ أشعرتك قضيتي؟ فأجبتهُ أنا أتعاطف معك في مسألة وأدينك في أخرى! فقال مستهجنا وما هي الأمور التي تتعاطف فيها معي أولا؟

فقلتُ وقد أغمضت عينيَّ راثيا لعزائي أنا كلّما نظرتُ إليك وأنت تحمل صور الشهداء من أصدقائي وأبناء جلدتي أتيقنُ من أنَّك الوحيد الذي لم يُتاجر بدمائهم وبقيت وفيّا لهم بحملك رسوماتهم لتذكّر الناس بأنَّ هؤلاء المُغيبين تحت التراب ذهبوا قرابين مجانية لكي تعتلي عروش السياسيين ويبقى كهنة المعبد أسيادا يملؤون خزائنهم من جهالة المغفلين ودماء الفقراء

وأتعاطف معك أيضا لأنَّني ومنذ أزمانٍ بعيدةٍ أراك محدودب الأكتاف ومحنيّ الظهر كشيخٍ عجوز يصارع الأمراض ويعيش أيامه الأخيرة بعد إن خاض مآزق العصور وعاش حوادث الدهور بعواصفها وكوارثها وحروبها ومصائبها ووقائعها ونكباتها وحيدا بين شارعين وقد أكلتْ جسده صعقاتُ الأسلاك الكهربائية ولسعاتُ الحرّ والقرّ! فما أقسى أن تجدّ نفسك وحيدا في الشارع ولم يلاحظك أحد أو يُثمّن

معروفك إلا بعد سقوطك وغياب تلك المصابيح التي كنتَ تحملها على رأسك لتُنير فيها ظلامهم وتُضيء لياليهم؟
كان ذلك العمود يتمّتم بكلماتٍ حزينةٍ ويبكي صمتا كأنَّه يقول لي أوجعني وصفك لكل ما قاسيته وعانيته مع بني البشر،وما مررتُ به من مصاعب ومعاناة لكنَّه لم يعرف أنَّه بالرغم من مواساتي له وتعاطفي معه مازلت أحمل له تواريخ سيئة واستنكارا فادحا لبعض مشاهداتي وذكرياتي معه! فقلت له لكنَّك لم تكن طيبا ولم تكن صالحا عندما سمحت لأولئك المتشدّدين أن يعلّقوا جثة أحدهم على رأسك لمجرد إنَّه كان مُختلفا معهم بالدين والتوجه السياسي؟ ولماذا لم تبدِ رفضا أو معارضة عندما كان يختبئ خلفك قتلة الأبرياء في الحرب الأهلية التي التهمتنا بلا مبرر فكنت أنت من يحامي لهم ويصد عنهم؟
أتعلم أيها العمود الخليع إنَّ ما ملأ قلبي قيحا منك ونفخ صدري غيضا عليك هي رؤيتي لك مؤخرا وأنت تحمل على امتداد طولك صورا لمرشحين وسياسيين ودجالين وكهنة وقتلة أغرقونا بالظلم والدم والفساد والتفكك والسفاهة فكلّما أبصرك محمّلا بتلك الملوثات البصرية لوجوهٍ أمقتها وأشمئز من رؤيتها أحسبُ أنَّك متواطئ معهم وشريكهم بالمؤامرة،وفي تلك اللحظات كأنَّني سمعت صوت وشوشةٍ خلفي وهمساتٍ حائرة صارتْ تعلو شيئا فشيئا فالتفتتُ وإذا بها

أمـي تنظـر إلـي بدهشـة وقالـت لـي مـاذا حصـل لعقلـك حتـى صرتَ تكلّم أعمدة الشوارع؟ فشعرتُ أمي تتحدث معي على إنَّني مجنون،وسلَكتُ أولى الخطوات إلى البلاهة والهبل،فلم تعطني فرصة لأشرح لها الموقف وحتى لو شرحتُ لها هل ستصدّق ما أهرطق به من أضغاثٍ ونبوءات؟

أتذكر أمي في ذلك اليوم ذهبتْ بي إلى مرقد أحد الأولياء من أصحاب الكرامات الأسطورية وضربتْ رأسي بقوة بالقفص الذهبي المتربع فوق قبره،وهو طقسٌ تستخدمه الأمهات الغرض منه إخراج العفاريت من رأس وليدها،وإنَّ تلك الضربة سببتْ لي صداعا نصّفيا فظيعا استمر ينّقر في دماغي ليومٍ كامل.

إبليس يعلن خجله

من الذكرياتِ المرذولةِ التي تغرقني في غوارب الشعور بالاحتراس والرهبة وتجعلني أسحبُ جميع الحوادث العابرة في حياتي من ذيولها لألتقط لها صورا متأخرة تساعدني بالنظر في إعادة الحسابات،هو ما شاهدته وجزعته في دهاليز الأيام وما التصق من المفاجأت الخاطفة على جدران الذاكرة،ومازلتُ مستغربا كيف يمكن أن تنسى الناس غارات عزرائيل الجماعية أو تستأمن غزوات الموت المجاني وما تجترحه الخلائق المتوحشة فيما بينهم،وهل يمكن إنَّ الله أباح لشرذمةٍ من خلقه العدوان والتّجاسر على الأبرياء الآخرين من جمهوره المختلفين بالدين والمذهب بين رعيته فيبارك نذالة الكهنة ويستمتع بمشاهدة المذابح والتفجيرات؟

لقد مضتْ السنون ومازلتُ أشمّ رائحة الأجساد المشوية كلما مررتُ بجانب ذلك المركز الطبي المشؤوم،وأسمع صرخاتهم وهم يركضون مستنجدين من النار التي كانتْ تحرق أعضائهم بالتسلسل وتلتهم الدقائق المتبقية من أعمارهم بنواجذها الملتهبة! ومازالتْ ذاكرتي تنزف ضجيج تلك الكارثة وأشعر

إنَّ دماغي يذوب جزعا حينما تراودني خواطر الانفجار الذي مضغ جثث الناس بملابسهم وجوعهم وأحلامهم المذبوحة
أتذكر ذلك الصباح المتواطئ مع مجرمي المساجد وحاملي نجاسة الفتاوى الفاسدة قد كشف عن مؤخرته للمدينة وفتح اسْتِهُ ليقذف علينا قاذورةً ذفرةً أتت من بلاد لوط! فأنا قبل الانفجار بدقائق ركبت دراجتي الهوائية قاصدا مكانا قريبا من المركز الطبي أو كما نسميه نحن البابليون (العيادة الشعبية) ولكن قبل وصولي المكان حدث ذلك الانفجار الدموي الذي شعرتُ بقوة عصفه العاتية ثم لعّلعَ أمامي تيارٌ ناري قاصف كأنَّه إعصارٌ تصاحبه زوابع جهنمية كادتْ تفقدني السيطرة! ومن سوء حظي إنَّني لم أتوقف أو أهرب عاصما جسدي من الخطر بل استانفتُ المسير وواصلت التقدم حتى اقتربتُ من موقع الفاجعة،فرأيتُ ما رأيتُ من استعراضٍ وحشيٍ رهيب! وكأنَّ بفضاعته قد فاقَ جميع مشاهد أفلام الرعب التي شاهدتها في حياتي،فمن بشاعته خلت إنَّ الله صار يضربُ كفيه أسفا والشيطان يحدّق مذهولا بأهوال المجزرة وهو يشعر بالضعف والإحراج من عجزه منافسة الإنسان بالقسوة والإجرام!
لقد كانوا بالمئات من الشباب العراقيين الذين تم قبولهم بالتطوع في الجيش العراقي احتشدوا أمام المركز الطبي لاستلام نتائج ملفاتهم الطبية ليلتحقوا في وظائفهم

العسكرية،وما كان على رعاة الإرهاب السماوي إلا أن يرسلوا لهؤلاء الابرياء سيارةً مفخخةً مهلكةً يقودها أحد أبالسة الوادي اليابس ليفجرها غدرا بين جموعهم بعد إن ذكر اسم الله وهلّل على حرقهِ تلك الذبائح البشرية! انفجرتْ المفخخةُ وسطهم فتقطعتْ رؤوسهم وأطرافهم واحترقتْ وجوههم وأشلائهم وتناثرتْ قطع اللحم المشتعلة إلى أعلى البنايات وتلطختْ الجدران بالدماء المخلوطة بالسخام والبارود وصار المكانُ يضطربُ بصخب الموت وتتصاعد فيه رائحة العطب وفي غضون ذلك تخيل لي إنَّ القيامة قامتْ وقد فتحتْ أمامنا أبواب جهنم! وما عليَّ في تلك اللحظات العصيبة والمشاهد الكئيبة إلا أن أرفع بصري نحو السماء وأعاتب الإله بقلبٍ كسيرٍ متسائلا ما الذي فعلناه كي نحرق ونحن أحياء؟ ومن هو قاتلنا وغريمنا الذي خطّط ونفذّ هذه المجزرة؟ فلم يجبني وحسبتني كالذي يبصق إلى الأعلى فيعود على وجهه،لكنّني لمحتُ في نهاية مكان الانفجار سيارتين عسكريتين لقوات الاحتلال الأمريكي وفيها جنود يبتسمون خفيةً ويصوّرون بكاميراتهم نتائج التفجير.

في سجلّ شهداء الكلدان

لقد امتلأتْ تلكَ الأوراقُ المبعثرةُ بقصص أحلامهِ المؤجلة،وفاضتْ من عيونه طوائفُ من الدعوات والحنين،فليس بإمكانه النسيان ولا يجرؤ على كبح رغباتِ قلبه من مبايعة أشباحَ السفرِ والعودة في الزمن إلى الوراء،لقد أغرقَ قصائدهُ بكؤوس الآلهةِ فصار قدّيسا يُبشّر الناسَ باليقظة،وجرّدَ قلمهُ شاهرا به في وجه الصحراء وهو يكتبُ لتاريخ أجدادهِ أهازيجَ وأغانٍ،إنّه يسمعُ مناديا يأتيه من خلف المدينةِ يكادُ يقبضُ روحه شوقا ويحملها إلى عالمٍ يتضوّع بأطايب الكلدان

فهو لا يعرفُ لماذا يذهبُ كلَ يومٍ إلى مدينةِ بابل الأثرية ويبقى تائها بين القصور والمعابد تحدو به ملائكةُ الشوق،ولماذا يقضي ساعاتٍ طوالا بين تلك الأسوار والتلال والبيوت والشوارع وصدره يضيق بالحنين؟ يتخيلُ قصصَ الأجدادِ تنبعُ في كلِ شبرٍ هناك،وإنَّ هاتفَ الدهرِ مازال يسحبُ قلبه إلى ما وراء تلك الجدران فيقفُ في ذلك المكان حزينا ويقبّلُ الأبوابَ والدكاكَ ويشهقُ في التراب ثم يمزّقُ ثيابَ الهواءِ ويصرخُ بكلِ ما يملكُ من لهفة قائلا : وربِ من أباحَ دماءَ أجدادي إنَّني كلداني...!

فهو يشعرُ إنَّ هنالك عرقاً باقٍ ينبضُ فيه يقضّ مضجعه وحياته لا يستطيع تجاهله ولا يمكنه مفارقته مازال يحسّ به متوقدا ويوقدُ معه هنيهات عمره وجوارحه وجميع الأحلام
أراد أن يصدعَ بتلك الحقيقةِ ويخبرُ الناسَ على إنَّ التاريخَ تم تزويره وحُرّف الأصلُ عن موضعهِ وقد ألصقوا بهم تاريخا مزورا غير حقيقي،تاريخ كاذب تمت صناعته في خيام البدو على مقاساتِ الدجلِ والافتراءِ،فصاحَ مرةً أخرى بأعلى صوته إنَّني كلداني ولم أكن بدويا في يوم ما...فقتلوه

خطة بديلة

تلك الفتاةُ العشرينيةُ التي تشتعلُ أنوثتها بالطّاقةِ والشبقِ،ويفوحُ من بين أزهار صدرها عبيرُ التشهونِ والشبابِ،كانتْ تتصيدُ العيونَ عند خروجها الشارع وتلتقطُ من وجوه الفتيان رغباتٍ سرية،فهي تستمتعُ عندما ترى نفسها محطّ اهتمام الذكور،ويبتهجُ فؤادها برؤية نظراتهم تميلُ إليها،وحينما تشعرُ ببرود تلك الموجة نحوها تجدها تصنعُ أغربَ التصرفاتِ المغريةِ للإطاحةِ بأكبر عددٍ من المعجبين

المشكلة أنَّها في الفترة الأخيرة اكتشفتْ إنَّ النقص الذي يلازمها لا يمكن أن تردمه نظرات المفتونين،وإنَّ الإحساس بالرُخص والشعور بأنَّها على الهامش ترك في داخلها فراغا لا تستطيع احتماله،وعلى أثر ذلك الصراع توترتْ علاقتها بأهلها وثارتْ قصص النزاع بينها وبين أخوتها فهي الآن تمرُّ بأزمةٍ نفسيةٍ وهم يمرّون بأزمة شرف! لذلك منعوها من الخروج وفرضوا عليها إقامةً جبريةً مع سبق الإصرار،فلم يبقى أمامها سوى أن تجرّب الخطة البديلة،فاشترتْ هاتفا نقالا مزودا بكاميرا عالية الدقة ومن خلاله صارتْ تحصلُ على المئات من المعجبين.

تكنولوجيا مرعبة

كان عندما يدخل البيت ويتوغل ميدان الغرف والمقصورات تأخذه هيعةٌ فجائيةٌ من الهواجس والقلق،يشعر أنَّه يقتحم ساحة معركة كل شيءٍ فيها قابل للانفجار! إنَّ ما يدهشه في ذلك المكان هو جهلهُ من استقواء أفراد عائلته،وأنهم دائما ما يجعلونه يتساءل من أين جاؤوا بكل تلك الصلابة والتجلد في مواجهة التهديد والمخاطر التي تحيط بهم في ذلك البيت المخيف؟

كانتْ أعظم أزماته وأدهى معضلاته هو الجلوس في غرفةٍ أو النوم على سريرٍ دون احتمالية وقوع الموت في أية لحظة! فالرهبة ما برحتْ ترهقهُ خصوصا عندما يشاهد الأسلاك الكهربائية المغلفة بالمطاط الأسود وهي تلتفُ وتتشبثُ بالحوائط والسقوف كأنها ثعابين غاضبة يمكن أن تستيقظ وتسقط دون سابق انذار! وأغرب ما في توقعاته حين يتابع تلك الأسلاك المتشابكة فيتصورها شرايين سوداء بارزة على وجنات الطابوق ومن الممكن أن تجرحها المسامير أو تخدشها بعض الزواحف فتغرقه بنزيفٍ ملوث! لا بل صار يتخيل إنَّه كلّما يهجع في غرفته يتحول لحشرةٍ عالقةٍ بخيوط عنكبوتٍ

عملاق لا يستطيع التحرر من حباله القوية أو ينام مطمئن الخاطر،فتلك الأسلاك الصامتة ترعبهُ لأنَّها في جميع الأحوال أشياء تحمل الموت في بطونها ولا يمكنه النوم وآثقا وفوق رأسه تجثم وحوشٌ تعمل لصالح عزرائيل!

فأحيانا يكون الحذر من الكارثة أشدّ عناءً من السقوط فيها،والموت في التوقعات أقسى من رصاصةٍ طائشةٍ تقتلك دون ارتقاب أو تخمين، فلا يوجد عشقٌ أبدي بمثل عشقنا للحياة لذلك هو الذي يدفعنا غريزيا للاحتفاظ بلحظات العمر حتى آخر ثانية

ولم تكن تلك النهاية العابرة فحسب،ولم يتوقف ذلك الرعب عند رؤيته للأسلاك الحبالى بجواسيس المنايا بل بات صاحبنا يتهيب الاقتراب من سائر المقابس والمنافذ الكهربائية المنتشرة في منتصف الجدران والقريبة من الأرضيات! فبمخياله الحادّ صار يظنُ أنَّ تلك المقابس ما هي إلا مناخير كونية ومن خلالها تستنشق جهنم رائحة اجسادنا أو فتحات زمنية تسيل منها سموم العقارب والحيّات المختبئة في أحشاء الحيطان،ولهذا كان يخفي خشيته وهلعه من النظر إلى ما خلف تلك الثقوب المشبوهة،ويهربُ مستهولا كلما يدخل مكانا ويراها محشورة في جراحات البيوت،فهل يمكن أن يوجد شخص في هذا الكون يفكر بهذه الطريقة سوى الأنبياء والمجانين؟ وإلى أية عاقبةٍ سترميه تلك الأحاسيس؟

وفي ذات يومٍ غامض وجد نفسه مذهولا بصحوةٍ باغتته على حين غفلةٍ عندما كان في غرفة المطبخ يتوارى عن مشاهدة السكاكين المرهفة والسواطير البتارة وشتى أنواع الشفرات والنصول الخطيرة التي يحتفظون بها بصورةٍ غير شرعية،فهو يرى إنَّه لا فرق بين قنبلةٍ وسكينةٍ فكلاهما يُريقان الدم ويُستخدمان لتقطيع اللحم،وأحيانا لإسكات الاستغاثات والصراخ لمخلوقاتٍ حكم الإنسان عليها بالاعدام

إنَّه يصارع خواطف الغرابة والانفعال وهو يسترق النظر خوفا من فرامة اللحم المتوحشة التي تمزّق أشلاء الجثث وتطحن العظام بشراسةٍ عاليةٍ كأنَّها مقبرة مكشوفة تبتلع الموتى وتقذفهم رفاتا طازجا،ولطالما كانتْ تراوده فكرةٌ مجنونةٌ هو أنَّه ماذا سيحدث لو جرّب وضع يده في تلك الماكينة القاصلة؟ فيتراجع مرعوبا من الاقتراب منها لا بل يشعر أنَّها جسمٌ متفجر أو عبوة ناسفة تُخفيها أمه بين أدوات المطبخ،وإلى الآن لم يدرك كيف سمحتْ السلطات باقتناء مثل هكذا أسلحة في البيوت؟ فما أهول ذلك المسكن الممتلئ بالإرهاب وبمعدات الحرب ولوازم القتال! وما أفضع أن تقضي أيام حياتك في منزلٍ تلاحظُ جميع شواغله تتوعدك باستلاب روحك وانزلاق عمرك إلى عالم الخسارات وعثرات الحظ!

فهـو يعتقـد إنَّ كافـة الآلات الكهربائيـة والأجهـزة المنزليـة الحاضرة في ذلك المكان هي مصدرٌ متوَقع لحدوث الفجيعة! فوجـود اسـطوانات الغـاز والمـدافئ المتوزعـة فـي الغـرف وأجهـزة التكييـف والسـخانات تزيـد فـي الغالـب مـن فُـرص الانفجارات المفاجئة وبالتالي يكون مماتك حرقا أو اختناقا أو على الأقل تُشوى بعضُ الأجزاء من جسدك! فكانت الأوقات تمـــرُّ عصـــيبةً عليـــه ومحفوفـــةً بأشـــكال الوســـاوس والمضـايقات،ويحيا مُضـطربا فـي دارهـم المشـحونة بالإنـذار والقلـق،حتى صـار يلعـن تلـك التكنولوجيـا ويكـره رؤيتهـا واستخدامها،ومازال يحلم في كهفٍ صـغيرٍ أو مغـارةٍ نائيـةٍ فـي جبل بعيد.

طلب محظور

مرتْ أكثرُ من خمسٍ وثلاثين سنة وهو مازال يعاقر الذكريات الجميلة التي خطفتْ في ممرات طفولته،ويعيشُ على عطشٍ ممتعٍ يُشاغبُ فيه مشاعره وبعض أوقات الفراغ، إنَّ أجمل ما يتذكره هي أغنيات أمه التي كانت تّغني له قبل النوم،وكيف التصقت تلك الألحان والكلمات على جدران ذاكرته،فأحيانا يرى نفسه تقدّم بالعمر وأصبح كهلا بالفطرة،وأحيانا يشعر إنَّ ذلك الطفل البريء الذي لم يكتفِ من اللعب والضحك دائم في أعماقه ويشاركه تفاصيل الحياة،لقد غادرتْ سنواته مع طبول الحرب ولا يعرف كيف احتشدتْ لحيته شيباً وهو بالأمس كان ينام في حضن أمه

في أحد الأيام حين طغى الشوق على قلبه وتعسفت الذكريات بحكمها على مشاعره ذهب عند أمه مستنجدا من ذلك الحنين،وراجيا منها أن تُخبّئه من عواصف الزمن ونوازل الضياع،فقال لها والدموع تترقرق في عينيه يا أمي أنا أعرف إنَّني عبرتُ الثلاثين من عمري وما عدت صغيرا لكنّني الآن حزين وأحتاج إلى أن أنام في حضنك وأريدكِ أن تُغنّي لي تلك الأغنية التي كنتِ تسمعينها لي عندما كنتُ طفلا ورمى

بنفسه بين أحضانها،نظرتْ إليه أمه وقد أقطبتْ حاجبيها غضبا وأبعدته عنها بقوة وقالت له بصوتٍ عالٍ: أنا لا أُغنّي مرةً ثانيةً أيها المغفل ألا تعلم أنَّ الغناء حرام؟

لقد أحبَّها دون أن تعلم

ها هو الآن قدّمَ الاستقالةَ عن الحب،وتعهّدَ أمام غطارفة القدر بأنَّه أغلقَ أبوابَ عاطفته وارتحلَ بعيدا عن قصص النساء وهبوات المشاعر،ولا يمكن أن يسمحَ لعصافير قلبه أن تحلّقَ مرةً أخرى في سماء الغرام! فهو قد عبر الخامسة والثلاثين على قاربٍ مثقوبٍ ما برح يصارعُ أمواج الظروف بإجهادٍ وخيبة،وقد ازدحمتْ في رأسه ولحيته أعذاقُ المشيب وإماراتُ الكبر حتى صار ينظر للحب على أنَّه حالةٌ روحيةٌ تولد بأجواءٍ مقدسةٍ وطقوسٍ سماويةٍ محرمةٍ بعيدةٍ عن حماقات المراهقين وجهالة المتصابين،غير أنَّه في لحظةٍ عشوائيةٍ غير محسوبة وجد نفسه ضعيفا يُعاني العذاب،فقد سرقتْ فؤاده تلك الكلدانية الفاتنة وأحكمتْ على نبضات قلبه وأنفاسه وأفكاره بالصّبابة والقلق،فهو لم يستوعب هذا الجنون المتأخر ولم يتخيل إنَّه سوف يتخلّى عن كل القرارات والعهود التي قطعها على نفسه،فقد قضى الأيام والليالي يسخرُ من تصرفاته ويستهزئ بكفوف العواطف المكتظة حول شبابيك قلبه فيحاول أن يصمَّ آذانه ويغضّ بصره ويغلق جميع صفحات الهوى في مخيلته وأحلامه كونه يرى إنَّ كل شيء هنا يقف بالضد من

هذه العلاقة،وإنَّ المستحيل أصدر حُكما غيابيا ومسبقا على انفصال تلك القلوب المتمردة! لم تمض سوى أيامٍ قلائل على ذلك القتال العاطفي القائم بين قلبه وحقيقة ظروفه الجالفة،وكأنَّه أُصيب بكآبةٍ هادئةٍ واستنزافٍ مستمرٍ لطاقته وراحته وصار يشعر على الدوام بعقارب الشوق تفسد تسابيح عزلته وترسل بقايا قوته إلى تكايا الجحيم!

كان في ليلةٍ شتائيةٍ خافتةٍ مستلقيا على فراشه وحيدا يجمع ذنوب السهر ويطبخ رؤوس السنوات في مرجلٍ مستعرٍ يدور في دماغه ليُنادم ذلك العاشق حنينا ساخنا يغسل فيه قلبه ويشتاق لعيون المحبوبة،كأنَّه وجد في نفسه صوتا أقوى من وجع الفراق وأصدق من تجاعيد وجهه! صوت يطرق صوامع رأسه ويحاوره بوطشٍ مسمومٍ على ما وجد في هذا الغرام من لوعةٍ وأسى،صوت يُعرّي الحقيقة أمام قبور ذكرياته ومقامات تجاربة الفاشلة،ويسأله بنغمةٍ مستقيمةٍ قائلا له كيف أمسيت عاشقا أيها الأبله؟ كيف أمسيت عاشقا لفتاةٍ بينك وبينها المسافات أبعد من مشارق الأرض لمغاربها؟ولو فكرتَ في يوم ما بلقائها ليس بمقدور نوارس قلبك أن تقطع تلك البحار الواسعة والهضاب الشاسعة ولا حتى الصحاري والدروب البعيدة التي تفصل بينكما؟ كيف أمسيت عاشقا لتلك الأميرة اليافعة وقطار عمرك قد ولّى بعيدا وهو الآن في طريقه إلى المحطة الأربعين؟ ألا تراها صغيرة؟ فبالأمس بدأ

يطلع لها ريش الشباب وقريبا ستشرق في وجناتها بوادر الحداثة؟

إنَّه يحسّ بذلك الصوت الخفي كأنَّه مرضٌ خبيثٌ يتفشى في خلايا عقله ويزعج فراشات ضميره بأسئلته القاسية،وصار يتخيله ينشر صُحف الأقدار أمامه ثم يقرأ ما بين سطورها هذه الكلمات: إنَّ من يعشقها القلب تعتنق دينا مختلفا،وإنَّ اهلها يعبدون إلها شريعته الموسيقى ويزرع الحب في قلوب الناس إلا أنَّهم سيرفضونه لأنَّه غريب ولم يكن من فصيلتهم أو تجمعهم عقيدة واحدة؟

كيف أمسيت عاشقا يا عاثر الحظ وأنت أدرى بنفسك عندما تعشق لا تصبر على نيران العشق ولا تطيق لسعات التعلق والهيام بل سوف تطحنها بغيرتك وتخنقها بدخان عاطفتك المتوهجة؟كانتْ تلك الأسئلة كفيلة أن تجعله يفزع ضجرا ويسأم ندما على قدوم ذلك الحب في وقتٍ متاخر

فجلس على فراشه بنصف جسده وصار يُعاتب ذلك النداء بصوتٍ جهورٍ وقال له أنا أعرف بأنَّني أسير في دهاليز مظلمة،وإنَّني عبثا أحاول عندما استجبتُ لرسول الغرام مرغما! لقد تعبتُ وأصبحتُ ضعيفا وجبانا إلى حدّ المخافة من أي شيء،ثم صمت لساعة وقرّر أن يكون شجاعا فهرب بعيدا عنها بعد إن أغلق جميع وسائل الاتصال وصار ينتظر ملك الموت يأتيه في أية لحظة.

معنى أن تفقد عزيزا

كنتُ أراقبهُ من بعيد،واتلصصُ عليه بالخفاء محاولا فهم ما يحدث معه،فالناس يرونه ليس طبيعيا،أفكارهُ لا تتجانس مع ممارساتهم المنكوبة بالعمى،وتوجساتهُ تزعج الأوثان المعشعشة في أدمغتهم فأنَّهم يرون غموضه حديثا مقدسا لم يُكشف عن قائله ولم تهتدِ الأقلام إلى مدى صحته ومازال يسبب إحراجٌ للكهنة! إنَّه طفلٌ بحجم مدرسةٍ تنزف بالفلاسفة،وعجوزٌ يرقص سرّا مع الصبيان،يأنس بالعزلة ويجرح الجميع بكلماته ومراوغات لسانه،كان الجميع يرونه مُصابا بمرضٍ نفسيٍ ويعتقدون إنَّ فيه طاقة منحوسة تجلب السآمة والملل،فهو عندما يمشي يُخيل لك إنَّ الأفاعي تلتفُ حول ساقيه،وحين تظهر صورته في الطريق تحسب إنَّ أمواتا سُمر يتساقطون من وجهه

كنت أتحين الفرص لكي أقتحم عزلته الموقرة،وأطّلع على سرائر عالمه الصوفي المُبهم،فهو قد رفع شعار النفور العام واصطدم حتى مع أهله وأصدقائه فظلَّ وحيدا ولم يتقبّل المشاركة! إنَّه اجتنبَ الزواج واعتنقَ مذهب اللاإنجاب كأنَّه

يريد إيقاف تفاهة الوجود ويصفع الأرض على مؤخرتها لتتوقف عن الدوران

لقد أصابني فضولٌ جامحٌ للتحدث معه والتقرب من محراب أفكاره المريبة،وحينما شاء القدر في لقياه وجمعتني به لحظاتٌ خاطفةٌ كأنَّني لمست شيئا غريبا فيه،فتلك النظرة التشاؤمية المأخوذة عنه تبدلت بمجرد محادثته وسماع صوته بل تحوّل ذلك الانطباع البائس إلى إعجابٍ ومحبةٍ،قلت له باحترامٍ كبيرٍ لماذا أنتَ تجافي الناس وأعلنتَ العداوة للأهل والأصدقاء وصرتُ أراك تشمئز من أي سلوكٍ من شأنه التآلف والاختلاط؟ نظر إلي بعينين حزينتين وقال أنا أخاف الفراق وليس لي بتحمّل الفقد،ثم غادرني مسرعا!

ساعتها لم أفهم معنى كلامه لكنَّني أدركتُ لماذا هو قد اعتزل الناس ولم يكن متعلقا بأحد،وعرفتُ لماذا كان يخاف رحيل أحبته وخسارة المقربين إلا عندما فقدتُ أبي.

مرآة الأميرة

بين شواسع المعمورة وزحمة الوجوه والأقلام،وبين امتلاء المسافات بالأجساد المنفوخة وصيحات الوهم الالكتروني،كانتْ هنالك فتاة تقارعُ أمواج أحلامها وتنسجُ في خيالها أجنحةً من الورق اسمها (الأميرة) لا تعرف لماذا أسموها بهذا الاسم إلا إنها تؤمن أنَّ للمرء نصيبٌ من اسمه لذا فهي ما برحتْ تهلوس مع ملائكة الظلام وتعيش هيجانا عاطفيا بهيما،وفي كل ليلةٍ قمراء تتوقع كفوف الآلهة ترمي لها تاجا زمرديا لتكون أميرةً حقيقيةً بعد إن ولّى زمان الاميرات!
لقد بلغت الخامسة والعشرين ومازالتْ تُجالد هبوب الفجوات المتبعثرة في فراغات روحها،وتُكابد شعور الإسقاط والتهميش في طوفان الوجود الجارف،فهي تريد أن ترتقي سارية الشهرة وتحلم أن يُبنى لها تمثال من الورد تحت حكايات الريح والمطر
إنَّها لم تكتشف بعد ما نوع المواهب والمزايا التي تمتلكها لتنطلق من خلالها إلى النجومية والتباهي،وما هي الوسيلة الفعالة التي تختصر لها الطيران إلى القمر كي تشاهدها العيون وتنال الاهتمام والإعجاب،فكلّما تقدمت ساعة في العمر

تشعر بتعاظم حاجتها للترويج عن مواهبها المجهولة،وإظهار نوادر تفوقها الموهوم،وكلّما تنظر في أعماقها وتتسلل إلى أغوار نفسها كان أحساسها ينزلق بالكثير من الخرائط المظلمة وفقاعات معنوياتها الهشة التي باتت تطفو على السطح،كانتْ الأميرة تعتقد أنَّها تمكنتْ من ترويض قلمها وطوّعت أفكارها وخيالها في كتابة الشعر لتبدأ رحلتها بالتصدي لحل مشاكل المرأة وقد صدّرتْ نفسها كفيلسوفة زمانها في معالجة معضلات المجتمع وهي في الحقيقة لا تستطيع كتابة سطرٍ واحد دون الذكاء الاصطناعي أو سرقة المفردات والقوافي من شعراء آخرين

وفي ذات مرة جلستْ الأميرةُ في خلوةٍ من الناس أمام مرآهاتها لكي تنتزع ظلامها المتوارى خلف أقنعة التحرر،وتُعيد ترتيب مناهج المراوغة مع الشباب،كانتْ لا تشعر بالحرج والاستحياء من محادثة نفسها في مرآتها الصغيرة وعلى الرغم من امتلاكها آلاف الأصدقاء والمقربين إلا إنَّها لم تجد رفيقا موثوقا يمكن أن تحكي له قصصها السرية وتكشف بين يديه أوراقها سوى وجهها الثاني الحاضر أمامها في تلك المرآة لا لأنَّها عفيفة الذات أو تحمي مشاعرها بوضع سياجٍ عازلٍ بين هشاشة حميميتها وبين المنافذ المحيطة بها بل إنَّها في ذلك تحافظ على بقاء شبكةٍ واسعةٍ من العشاق المبتذلين،وتدّخر في خزانتها العاطفية على دزينةٍ احتياطيةٍ من

الرجال المُتهتكين صبابةً تعود إليهم عند الحاجة! فهي تحسبُ إنَّ كمية الاحترام والتقدير والتعظيم والتفخيم لذاتها وكيانها يعتمد على الاكتساب المستمر لجاذبيتها من مصادر متكررة من المعجبين ولا يمكن لها التخيل إنَّ مشروعها الرومانسي يكتمل بدونهم

فسألتْ وجهها المشرق داخل المرآة وقالت لماذا أنتِ دائما ما تعطين إشاراتٍ رقيقةٍ للجّميع وتتركين تلّميحا غراميا مُبطنا مع كل شابٍ تصادفينه أو تحادثينه غير إنَّ أهدافكِ ومصاديق قلبكِ ليست مركّزة على شخصٍ واحدٍ ولم تستقر نياتك على الارتباط والاكتفاء بمحبوبٍ فريد؟ فأجابتْ وقد رفعتْ حاجبها غرورا على الرغم من إنَّ هاتفي مختنق بأسماء العشاق والمتابعين ولم يُخمد وميضُ الإشعارات والرسائل وعبارات التملق والملاطفة إلا إنَّني لا أُراهن على عشيقٍ وحيدٍ ولا بخدينٍ يستقلُ به قلبي دون الآخرين وذلك لاعتقادي إنَّ الأفضلَ لم يأتِ بعد،وأجدُ رغبتي لم تشبع من تذوق فاكهة المتعة ولم أرتوِ من امتصاص أصابع الشهوة التي تتقاذف عليَّ من كل حدبٍ وصوب! ثانيا أنَّ هناك نشوة مدهشة ولذة عظيمة تعتري روحي حين أجعل المتعطشين لسحري يتعرضون للألم ويخضعون لسطوة أنوثتي،ومع كل تجربةٍ أكتشف إنَّني أطوّر دفاعات مشاعري واستحدث تحصيناتٍ إضافيةٍ لمواجهة أي مغامرة تطوقني بعلاقة نهايتها ملل مؤبد!

عبستْ الأميرة وجهها مستغربةً وصارتْ تتذمر وقالت باستنكار لمن في داخل المرآة لماذا كل هذا يا غريبة الأطوار ألم تعلمي أنَّكِ بهذه التصرفات تثبتين شذوذكِ وتعزّزين انحرافا غريزيا يقبع خلف حجاب انسانيتكِ؟ تبسم وجهها بمكرٍ في المرآة وقال وأنتِ أيضا أيتها الحمقاء ألا تعلمين إنَّ أي استثمارٍ غرامي حقيقيٍ سوف يجلب لك العذاب،فأخطر ما يحدث مع الفتاة إنَّها تمنح رصيد قوتها وأمانها لرجلٍ ثم لا تتوقع منه أنَّه سينبذها أو تعطيه خنجرا مرهفا وتستبعد من أنَّه سوف لا يطعنها عند وجود الفرصة؟ أنا يا سيدتي وجدتُ سيرة شغفي مع الرجال عبارة عن صفقات تشويق وإثارة بل تحركات وتجوال مُسلّي بين عواطفهم وأوجاعهم ولدي الإمكانية بتغيير إعدادات وتفاصيل العلاقة مع أي شخصٍ كان بمجرد شعوري بهبوط شخصيته ووقوعه أمامي!

فأنا لا أتمسك بحبيبٍ يتغزّل بعيوني أو يذوب انجذابا باعوجاج خصري ودوران أثدائي ومؤخرتي بقدر ما يشغلني الشدّ والإرخاء والتصادم والتباعد والاختلاف والتناغم والتنازع والانسجام في كل جزءٍ من العلاقة،أنا أرغب في رجلٍ يريدني ولا يحتاجني أحاصره بسلاسل أنوثتي وأنقضُّ على قلبه فيفلتُ من قبضتي،وكل ما توقعت أنَّني تمكنتُ من أسرهِ ورضوخهِ لجبروتي وكبريائي ينهض فجأة فيسقطني ويكسر أشرعة غروري! أريده أن يقصف صلائف أفكاري ثم يغوص بي إلى

هاوية الرجوع للبداية بل أريده وحشا أليفا ليس كالذي عندما يراني تُصاب مشاعره بالإسهال

وفي أثناء ذلك الجدال المستور رنَّ إشعارٌ في هاتف الأميرة من شخصٍ تعرفتْ عليه مؤخرا فرأته قد نشر لها بعض قصائدها في أحد المواقع الإلكترونية الرصينة في خطوةٍ منه لترسيخ قواعد التعارف والاقتراب منها،فما فعلتْ إلا إن أمطرته بقطراتٍ شحيحةٍ من كلمات الشكر،وفكّرتْ بمشاركة تلك المجاملة على صفحتها الشخصية غير أنَّها سمعتْ صراخا عاليا يخرج من مرآتها تحذرها من عواقب الإقدام على ذلك الفعل،فهي لو شاركته ورأها المعجبون والمتسابقون إلى قلبها سيؤمنون إنَّ ذلك الرجل قد فاز بها دونهم وساعتها ستخسرهم وتفقد أهم المصادر التي تغذي عاطفتها منهم! ثم ذكّرتها صراحةً من إنَّ مشروعها في جميع وسائل التواصل الخاصة بها ما هو إلا عرض مجاني لاهتمام الذكور فلا تتحامق وتخسرهم،وهكذا كانتْ تلك الأميرة دائما ما تأخذ الوصايا والتوجيهات من مرآتها الماكرة.

وفاء غير مباشر

كانــتْ صــورتهُ تتهــاوى يمينــا وشــمالا فــي الجــزرة الوسطية،وتلطمها الريح من جميع الاتجاهات،وكأنَّ كفوف الزمن قد أحكمتْ عليها بالرجم المتكرر بين شارعين أمام عيون الناس،وحتى الشمس كان لها نصيبٌ من انتهاك حرمتها فهي ما انفكتْ تمتص ألوانها وتمحو آثار تلك الملامح البريئة بحرارتها القاسية

كانَ الناسُ ينظرون إليها ببرودٍ مطبقٍ ولا يكترثون لذلك المنظر المؤسف سوى شخصٍ واحدٍ وقف أمامها يبكي بحرقة ويتوسل الريح أن تتوقف عن ضرب صورة صديقه الشهيد وسط الشارع،لكنَّ الريح لم تكن رحيمةً ولم تتعاطف مع مشاعر صديقٍ استبد به الجزع والاستنكار وهو يرى رسوم صديقه تتلاشى وتسقط! فهي بالنسبة له لم تكن صورة عادية تنتحب بجانب الطريق بل حكاية ذكرى وخلود،وكلّما يراها شامخةً في ذلك المكان يتيقن أنَّها تكمل مشوار صديقه بالنيابة عنه

سقطتْ دموعه مشى خطواتٍ متثاقلة وإذا بعاصفةٍ شديدةٍ هبّتْ كالإعصار وصارتْ تلقف كل شيء بما فيه صور الشهداء

المنتشرة على طول الشارع،فركض مسرعا وحاول أن يحمل صورة صديقه التي تهاوتْ على الرصيف وأراد أن يحتضنها لكنَّه لم يستطع كونه مبتور الذراعين في المعركة ذاتها التي استُشهد فيها صديقه الوحيد.

مشاعر افتراضية

كانتْ عيناه تفتشُ عنها بإصرار،ويداه ترتعشان بطريقةٍ جعلته لا يستطيعُ مسكَ نقاله بصورةٍ صحيحةٍ،يشعر أنَّ هنالك مرضا تفشى في خلايا مشاعره وصوتا عنيفا يتعالى في نفسه حتى صار يفقد اتزانه شيئا فشيئا،عيناه غلبهما النعاس وهما تنتظران بشغفٍ وشوقٍ لرسالةٍ واحدةٍ من تلك الفتاة الجميلة تُعيد له الحياة من جديد

مرتْ الساعاتُ بقلقٍ مزعجٍ،وذابتْ أحلامه وجعا على مواقد الانتظار،فهو لم يستطع التحمل أكثر وكأنَّ هنالك شيئا يدفعه ويمتص بقايا طاقته،مَسَكَ نقاله ودخل حسابها فكتب لها مقالا وقصيدتين،أراد أن يرسل لها لكنَّه تذكّر إنَّها لا تقرأ ما يكتبه لها،ولا تهتم لاعترافاته الغامضة لأنَّ الذي كان بينهما لم يكن تفاوتا فحسب بل أجيال ودهور،فما يملك إلا أن يقوم بمسح كل ما كتبه في ضغطةٍ واحدةٍ وهو يلعن القدر الذي جعله يعشق من خلف الموبايل.

أعتذر يا سيدتي القطة

أنا الآنَ في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل،أجلسُ وحيدا في برهةٍ شتائيةٍ باردةٍ،التيار الكهربائي منقطع والشمعة احترق نصفها ومازلتُ أسمع الريح في الخارج تضرب الأبواب والشبابيك بطريقةٍ متلاحقةٍ فصرتُ أتخيل زمرةً من المجانين يعبثون بكل شيء يصادفهم في الوهاد...هنا في غرفتي تجمدتْ أقداحُ الشاي ورقصتْ الأقلامُ بلا رؤوسٍ كأطفال غزة وما برحتُ أتعذبُ بأغنيات محمد رضا شجريان الإيراني بالرغم إنَّني لا أفهم الفارسية إلا إنَّ صوته يساعدني على البكاء! نعم أبكي لأنَّني كنتُ كافرا بآلهة الرحمة،ومجرما لعينا بالفطرة عندما مارستُ نذالتي على أضعف مخلوق!

إنَّ أصعب المشاعر وأسوأها تلك التي تصحو بعد فوات الأوان! ففي هذه الساعة المتأخرة أريد أن أصرخ بأعلى صوتي،وأعوي مُستنجدا من زائرة الذكريات الجارحة التي تلازمني منذ سنين،إنَّها سوف تفجّر دماغي وتشوي قلبي وتسحق جسدي بمخالبها القاسية،أريد أن أضج ندما وأنبح مُتأسفا على ذلك الذنب الكبير الذي مازال ضميري يعاني آلام سياطه،فعندما كنتُ صغيرا أتذكر إنَّني عثرتُ على قطةٍ في

غرفتي،وحين رأتني فزعتْ جدا وحاولتْ الهرب،لكنَّ الشيطان تلاعب بأفكاري وأيقظ الغول الهمجي المُختبئ في داخلي،فأقفلتُ الباب ولم أدعها تنفذ بجلدها وقد حصلتُ على عصا يابسة وصرتُ أضربها بقوةٍ وهي تركضُ مذعورةً في جميع اتجاهات الغرفة،وكأنَّها تصيح يا رب خلصني من عصا هذا البشري الشرير،فتنظر في عينيّ بانكسارٍ ولسان حالها يعاتبني بكل ما تملك من ضعفٍ وشكوى وتقول لي خفّف الضرب أيها البربري الطائش،ماذا فعلتُ لك كي تنتقم منّي بهذه القسوة؟ أنا مخلوقٌ ضعيفٌ ولا أقدر أن أحامي عن نفسي من شراسة كفيك الفظيعتين فأي نوعٍ من البشر أنتَ أسخن الله عينيك على ما تفعله بي؟

صرتُ أراها وقد تعبتْ من مجاهدة ضرباتي وأنهكتها متابعة القفز والركض السريع على جوانب المكان،فتوقفتْ واستسلمتْ ولم تحرك ساكنا بسبب الإرهاق وصارتْ تعاتب ضميري الذي تخاذل عن منعي من العدوان،إنَّها تخاطبُ الإنسان الخسيس الذي كان مستمتعا بمعاقبة حيوانٍ مسكينٍ لا يملك لنفسه حولا ولا قوة ويتوسلني لأرحمه وأوقف ذلك الانتهاك السافر في حقه لكنَّني لم أتوقف إلا عندما أفرغتُ آخرَ قطرةٍ من انحطاط إنسانيتي وأثبتتُ أنَّني مارستُ أسوأ الرذائل في تلك الحادثة! فأين أجد تلك القطة النقية لكي أقدّم

لهـا طلـب العفو وفـروض المسـامحة والاعتـذار عـن إسـاءتي وجنايتي وتجاسري عليها؟ فقد كنت كلبا بجسد إنسان
أنا أعتذر يا سيدتي القطة ومازلتُ أموت حزنا كلما أتذكر ذلك الذنب المخـزي الذي بـات علامـةً سوداء فـي صـفحة تـاريخي المعيب،أين أجد تلك المسكينة لكـي أدعهـا تقتصُ منَّـي وتأخذ حقها من هاتين الكفّين اللعينين؟ فقد مضى عشـرون عامـا وأنـا أعاني وخـزا فـي ضـميري ولعنـةً أبديـةً تصـارع إحساسـي فـي كل يوم،فكيف لي أن أتناسى تلك الآثام التـي سـوف تقتلنـي فـي يوم مـا؟

العقم في الضمير وليس بالجهاز التناسلي

لقد مضتْ أكثرُ من أربعِ سنواتٍ عجافٍ على زواج ابنة جارنا الوحيدة ولم تُرزق بطفل،إنَّها الآن تشعر بمعاول الفراغ وجواريف القلق يحفرون في أعماقها قبورا لسنواتها المقبلة،وبدأتْ المخاوف تسنُّ سيوفها وخناجرها استعدادا للمعارك التي أزفتْ مواعيدها في صدر تلك العقيم المحزونة،فهي لا تستطيع استيعاب فكرة إنَّ رحمها متوعر كصحراء جديبة لا ينبت فيها جنينٌ ولا تتّضح منه نداوة الحياة،وليس بوسعها أن تتحمل لوحدها أثقال الاحتمالات والمجازفات التي تنتظرها في المحطة الأخيرة عند بلوغ خنادق التهرم والشيخوخة،لذلك فهي مازالت تتخبط بإرهاق بين أضاليل المُنجمين والعرافين والسحرة،وبين سدنة الأضرحة والنذورات القائمة على الاستغفال والمقايضة! وفي المحصلة من كل ذلك إنَّها لم تظفر بمبتغاها ولم تلمس من تلك الوعود سوى الأوهام،فما أتعس أن تضطرك الحاجة بالوقوف عند أبواب الكهنة والنصابين ليبيعوك أملا مُزيفا تداوي فيه جراحات روحك بالرغم من شعورك بأنَّ بضاعتهم مغشوشة،وما أفسد العواقب حين تجد نفسك تنزف في آخر

القافلة ولا يكترثون لأنَّك ضعيف المشاركة في عملية تكاثرهم الحشري فينظرونك عديم الفائدة

لقد كانتْ تلك العاقر في كل مناسبةٍ تتجرع سموم الانتقاد والتقريع حتى من أقرب الناس إليها،وتشعر أنَّ غضاضة عقمها فضيحةٌ اجتماعيةٌ أو عار مهين تعاني من آثامة كلّما تشاهد فتاة حامل أو امرأة تحمل بأحضانها رضيعا!! كان بيننا جدارٌ فاصلٌ عمل أبوها على زيادة ارتفاعه خوفا من العيون المتطفلة،ويدرء عن عيون ابنته التفكير بالتلصص على أبناء الجيران،لكنَّ كلَّ ذلك لم يمنع مسامعي من التنصت لشكواها وبكائها المرير خصوصا عندما كانتْ تأتي إلى بيت أهلها حال تعرضها لأي تنمّرٍ أو تكبيتٍ في بيت زوجها، ومازلتُ أتذكر نواحها المفجع وكلماتها المشحونة بالعتب والاسترحام وهي تكشف لأمها في ذلك المساء الحزين عن آخر محاولاتها بالإنجاب وهي بما تُسمى(عملية أطفال الأنابيب) التي لم يُكتب لها النجاح ولم تفلح الأقدار في جبر خاطرها المكسور!

لا أعرف لماذا في تلك اللحظة أحسستُ أنَّني متّفقٌ مع عقم بنت الجيران،وانتبهت لحظّها السعيد الذي لم يشأ أن يورّطها في عبثية التناسل البشري ولم يجعلها شريكا معّتوها بجلب أفواجٍ من التعساء لهذه الحياة القاسية،ففي تلك الساعة كان بودّي أن أرفع رأسي من فوق الجدار وأقول لها كفكفي دموعك واطمري أحزانك فإنَّ لك الحظوة السامقة في كل ما

أنتِ به لأنَّك تمتلكين رحّما أجردا،ليتك تعلمين إنَّ لفي العقم مزيةً ثمينةً وفضيلةً نادرةً لا يمتلكها إلا ذو حظٍ عظيم!
ولهذا الأمر إنَّ أولادك الذين لم يولدوا من رحمك العسير مدينون لك بالشكر الكبير والعرفان الوفير لأنَّك لم تأتي بهم إرضاءً لأنانيتكِ وجهلكِ وقلقكِ وخوفكِ من عدم الحصول على من يسليكِ ويشعركِ بأنَّكِ كائنٌ ذو قيمة
مدينون لك بالإفضال والمنّة على معروفكِ العظيم لأنَّكِ لم تحضريهم نُسخا بائسةً وعاجزةً مثلك ومثل آبائك،فينبغي عليك أن تستحقري نفسك وتلعنيها لو أنجبتيهم وألقيتِ بهم في مجارير هذه الحياة الدنسة وجعلتيهم يعيشون مع هؤلاء البشر في زحمة الخيانات والخسارات والفقر والأمراض والتنمر والتذمر والحرمان والحروب والتشاجر والتناحر والتلوث والوحوش والمجرمين والإرهابيين والأسلحة الفتاكة!
كيف يمكنكِ أن تضعي طفلا في مكانٍ معبأٍ بالضياع ومليءٍ بمشاهد الموت والجهل والجوع والاغتصاب والإجرام والتحرش والخداع والتدليس والعصابات والجماعات والطائفية وتجار الدم؟ كيف يمكنكِ أن تجلبي شخصا لهذا الشقاء والبؤس الذي نعيشه ولم يكن له رأيٌ أو مشهورةٌ ولا حتى حرية الرفض والقبول بقراركِ المُتعسف هذا الذي أقل ما فيه هو أنَّك سوف تضعين طفلك في عملية إعدادٍ مؤجلةٍ للموت،وستكونين شريكا فاعلا بارتكاب جريمةٍ حتميةٍ في

المستقبل! فلولا قتالكِ وأفعالكِ المشينة على إقحام مخلوقٍ بريءٍ في كل هذا العبث لما كان سوف يرى أي معاناةٍ أو مأساة

كانتْ هذه الأفكار والصرخات تتصارع في داخلي وأنا أستمع لكلماتها من وراء الحائط،فهي مازالتْ تبكي وتجّلد ذاتها وحظها كونها عقيم،ولم تستمع لمواعظي وتذكيري...وفي تلك الثواني سمعتُ صوتا مدويا وصياحا عاليا يخرجُ من داخل بيتنا فتركتُ استراقي للسمع من ابنة الجيران وأمها ودخلتُ مُسرعا فوجدتُ زوجة أخي ناثرة الشعر وتلطم وجهها وتصرخ بجنون وعندما رأتني بكتْ بحرقة وقالت إنَّ أخيها الصغير قد توفي في المستشفى،لقد قتله السرطان وانتصر عليه المرض بعد إن قضى أربع سنوات يتعذب دون رحمة،وخرجتْ من تلك الغرفة مذعورة وجميعنا نركض خلفها حتى وصلتْ قرب ذلك الجدار الذي كنتُ من خلاله أتنصت على ابنة الجيران وصارتْ تضربُ رأسها فيه والدماء تسيلُ من جوانبه! ومازال صوتُ تلك العقيم جهورا ويصلُ مسامعي وهي تندبُ حظها كون إنَّ عملية طفل الأنابيب لم يكتب لها النجاح

توبة سفاح

منـذُ زمـنٍ بعيـد وهـو يشـعرُ أنَّ اسـمه مكتـوب بلائحـة المجرمين،وأنَّـه مطلـوبٌ للعدالـة بسبب طبيعتـه المتوحشـة فـي القتـل وافتـراس الآخـرين! منـذ زمـنٍ مضـى وهـو يصـارع ضميره اللحوح ويتقيأ مشاعره المواظبة على الملامة والتوبيخ لقد قضى خمسا وثلاثين سنة على جرائمه المتسلسلة دون أن يعاقبه القانون أو تصدر بحقه أي مذكرة إعتقالٍ بالرغم من ارتكابه المجازر،فهو كان يتفنّنُ بقتل ضحاياه ويُجيد استخدام السكين فـي تمزيـق وتقطيـع أشـلائهم! كـان يحـرقُ فرائسـهُ ويستطعم بانبعاث رائحة الشواء من أجسادهم الضعيفة بل يسيل لعابهُ شهوةً برؤية ذبائحه تتقلب في قدور الطبخ أو على موائد الجشع إلا إنَّه الآن قد أعلن التوبة عن كل تلك الجرائم وقرر أن يُصبح نباتيا.

"سونالي" فيلسوفة العاهرات

في تلك الليلةِ المتلألئةِ بالأقمارِ السمراءِ،والأجواء المفعمة بنكهات الأناث الهنديات حيث الملاحة تمتزج بعسل الشفاه،وافتتان النواظر بالأجساد الغامقة التي تتدفق منها فاكهةٌ لاذعةُ المذاق،كان سلطان وسط تلك البنايات المضيئة بمصابيح الأعياد يتنسمُ رائحة الآلهة الهندوسية،ويتجولُ مُبتهجا بين المقاهي والبارات ونوادي الرقص المزدحمة بالأفخاذ العارية والأثداء المنتفخة،فكان كل وجهٍ هناك يتفاعلُ مع الريح بالابتسامات والمرح،وتجد كلَّ خاطرٍ يخفق بالحيوية والحماس إلا ذلك الغريب المُتعب مازال يدرج خطواته كطفلٍ يتراخى بين زحمة الجماهير،ويتكاسل بسبب أثقال الذكريات التي باتتْ تتراكم في رأسه

إنَّه يتألم صمتا ويخفي معاناته المتزايدة في حمل أوزار عاطفته التي أمستْ تحبلُ في كل ثانيةٍ وتجهضُ بمواويل الفاقة ومرثيات الحنين،فلقد مضى زمنٌ طويل وقلبه عاكفٌ على مقارعة فواجع الغربة،ويشعر بالإجهاد والمشقة يتفشيان في

أعصابه ويلتهمان آخر ما تبقّى من فلول عزيمته! جلس على كرسيٍ منفردٍ خارج المقهى وصار يرتشف قهوته على مهل ويستمتع بالنظر لوجوه المارة،فخرخشة الخلاخيل وموسيقى الفلوت الهندي وأنصاب الآلهة وعطور السنادين والجدران الملونة وحتى أصوات النساء المنتشرة في الساحات وهي تتنغم بإنشاد تعاويذ المانترا التعبدية كلها تضفي على ذلك العالم نسيما رومانسيا يبعث الراحة والاطمئنان لروحه،وفي غضون ذلك كأنَّه لمح لوحةً في الجانب الآخر من الشارع مرسوما عليها صورة تخطيطية لتمثال الفيلسوف غوتاما بوذا مكتوبا بأعلاها(مركز للتدليك والاسترخاء) بدأت أفكاره الشريرة تدفعهُ لتجربة الدخول لذلك المكان،وشعر أنه بحاجةٍ لتحرير جسمه من مخالب الإرهاق والتشنج

عندما دخل كان موظف استقبال ذلك المركز لا يتقن اللغة الانجليزية وهذا ما سبب صعوبةً بالتواصل فما فهم ما طلب سلطان منه،وعلى كل حال قام ذلك الموظف بإدخاله في غرفةٍ بسريرٍ واحدٍ محاطة بجدران زجاجية داكنة وعلى جوانب سقفها مصباحان خافتان يكادُ ينعدم ضوءهما الأخضر،فأشار على سلطان بأن يخلع جميع ملابسه ويستلقي على السرير ريثما تأتي إليه أحداهنَّ

كانتْ التماثيل الصغيرة لبوذا تملأ المكان ورائحة البخور وموسيقى التأمل الشامانية تغمر الجو بسكينةٍ روحيةٍ تجعل

العقل يتطهر تحت شلال الشفاء والطاقة حتى صارتُ عيناه تتوسّن وهدأتْ أنفاسه،وما إن مرّتْ دقائق قليلة حتى دخلت عليه فتاةٌ هنديةٌ ربعة القوام سمراء ذات عينين سوداوين ترتدي معطفا خفيفا بعطرٍ نسائي مثير! قالت له لمَ لمْ تخلع جميع ملابسك وتسترخي؟يبدو إنَّك خجول وستتعبني جدا والطريق أمامنا طويل ومتعرج على هذا السرير وهي تتابع ضحكتها المليئة بالفسق

فقال سلطان وهو يتصنعُ الغباء وما الذي يجعلنا بكل هذا التعب فهي نصف ساعة من التدليك وبعدها يذهب كلٌ منّا إلى حال سبيله؟ نظرتْ إليه باستغرابٍ ودهشة وقالت ما الذي تقوله يا سيدي فموظف الاستقبال أخبرني أنَّكَ دفعت أجرة التدليك وخدمات إضافية؟ فأجاب سلطان أنا لا أريد أي خدمات إضافية ويظهر أنَّ مديرك لا يتقن الانجليزية فجعلني أدفع أكثر،وأضاف تقصدين بالخدمة الإضافية هي ممارسة الجنس أليس كذلك؟ قالت له نعم وارتسمتْ على شفتيها ابتسامة ماكرة وصارتْ تتلمس في رقبتها وصدرها،نظر في عينيها وفي داخله اضطرمتْ جمراتُ شهوته وتصاعدتْ حرائقُ غريزته فحلّقتْ يدهُ نحو شفتيها الحمراوين وصار يتحسسهما بلطف وقال لها بصوتٍ خفيضٍ ما اسمك؟ فأجابته سريعا أنا اسمي سونالي ويعرفني مرتادو هذا المركز بأنَّني خدومة وأكرم الزبون وأعمل له أي شيءٍ يطلبه منّي بلا منّة

واضافتْ... نعم يا سيدي ماذا تحب أن أفعله لك وما هي الأوضاع التي تعجبك؟

كان سلطان يشعر إنَّ هنالك حاجزا شفافا يفصلها عنه أو إحساسا ليس طبيعيا يطرد فراشات تأثيرها عليه فقال لها أنا لا أريد ممارسة الجنس معك! فعبست ملامحها حيرةً وقالت كيف لا تريد وأنتَ دفعتَ مبلغا كبيرا في مقابل حصولك على خدماتٍ إضافيةٍ؟ فكرر سلطان جوابه قائلا إنَّ مديرك لم يفهم ما طلبته فأنا أردتُ نصف ساعة من التدليك والاسترخاء فقط،قالت سونالي لكنَّكَ سوف تخسر ما دفعت ولا يمكنك استرداد مبلغ الخدمة الإضافية؟ فقال لا يهم فأنا معتادٌ على الخسارات وما عادتْ لدي تلك النفس التي تحاسبني على ما قد يفلتُ من يدي كالسابق! فردتْ عليه دون قناعة لك ما تريد يا سيدي وبدأتْ بتدليك ظهره بأناملها الرقيقة

مرتْ الدقائق في صمتٍ وهدوء فلا تسمع في تلك الغرفة سوى موسيقى الناي وخشخشة كفوف سونالي وهي تغمسها في الزيت وتفّرك بهما جسد سلطان وكأنَّها تعرف أماكن وجعه ومواقع أعصابه المتشنجة وبكل ما تملك من دهاءٍ في فنّ الأغواء جعلته يستسلم لدفئ لمساتها وليونة كفيها اللتين تحول ملمسهما إلى حفيف أجنحةٍ يدغدغهُ بإثارة،فسألته بهمسٍ هل لديك حبيبة؟ فقال لا،وهل تعاني من أمراضٍ نفسيةٍ أو جسدية؟ فقال لا،فقالت هل شممتَ فيَّ رائحةً كريهة أو تشمئز

من الفتيات السمراوات؟ قال لها بالعكس أنهنَّ المفضلات والأقرب لذوقي،فقالت إذن لماذا لا تريد ممارسة الجنس معي؟ هل وجدتني لا أعجبك فنفرت عن مضاجعتي؟

جلس سلطان على السرير وقال لها أنتِ أجمل وأرقى من كل هذه الظنون أيتها المليحة وصار يزيح شعرها عن وجهها بكلتا يديه وأردف هامسا أتعلمين يا جميلة إنَّني الآن أصارع وحوش رغبتي وأقاوم عطش شهوتي إليك لكنَّني لا أريد ذلك؟عندما سمعت ذلك الكلام تبسمت وانكشف ظلال حيرتها وقالت له أنا مثلك أشعر أنَّني لا أستطيع كبح جماح غريزتي فأرجوك لا تتمنّع أكثر؟ودستْ يدها خلسةً إلى منطقته المحظورة فأمسكتْ غرمولهُ وصارتْ تُلاعبه وتقبّلهُ بشبقّ وخَلاَعة ثم قرّبتْ شفتيها من مسامعه ووشوشتْ له قائلةً ماذا تريدني أن أفعل لك ها..؟ أنا جاهزة بين يديك دون رفضٍ،هل تريدني واقفة أو على السرير؟ أو تريدني تحتكَ أو إلى جانبك؟ أرجوك أفعل ذلك من أجلي فليس لدي مانع لو أحببت من الفم أو من الخلف المهم أن تنطفئ هذه النيران؟ وصارتْ تستدرج رجولته وتنشّط القنابل الجنسية المتراكمة في جهازه السري!

مسك يديها بغضب وقال لها أنا لا أدفع لأي امرأة لشراء جسدها لبعض الوقت،ولا تعجبني ممارسة الجنس بلا عاطفة كما تمارسه الحمير،فلو كنتِ زوجتي أو حبيبتي لطحنتكِ الآن

طحنا ولا تأخذني فيك رحمة! فقالت له ولماذا تعتبر أنَّ المرأة التي تبيع جسدها لرجل فاسدة وتمارس الرذيلة؟ على العكس فنحن نقوم بصفقةٍ تجاريةٍ من عرضٍ وطلبٍ أو بيع وشراء،أنت تدفع المال وأنا أقدم لك خدمة من الصعب أن تحصل عليها،ولا فرق بين التي تستخدم جسدها في الدعارة وبين التي تستهلكه في عمل المصانع أو الخدمة في البيوت فجسدها في جميع الأحوال سيكون آلةً لإنتاج النقود!

قال لها نعم...ولكن عندما يتحول الجسد لسلعةٍ قابلةٍ للمقايضة سيتجرد عن معناه الإنساني وستفقدين شعور الاعتزاز به وتقدير ذاتك من خلاله،حدقتْ سونالي في عيني سلطان وقالت له باستنكار لو آمنتُ بكلامك هذا فماذا تقول إذن للأديان وبعض الثقافات التي شرعنتْ السبي وأحلّت بيع النساء في سوق النخاسة،فأين احترام الإنسان وتقدير ذوات النساء المستضعفات؟ يا سيدي هنالك فرقٌ بين من تمارس الجنس لأجل الحب والمتعة وبين من تمارس لأجل المال،فنحن معشر البغايا قد فضحنا نفاق المجتمع وعرّينا عقدة ازدواج الفضيلة والفجور في نفوس الرجال! أتعلم إنَّ أغلب زبائننا هم من مدّعي الطهارة والعفاف؟ إنَّهم يأتون إلينا كالجرذان الجائعة ليستفرغوا بقايا شرفهم في فروجنا ثم يحكمون علينا بالخطيئة من منبر الأخلاق! وفي الحقيقة نحن معهم نتعامل مع أجسادنا على إنَّها ليست سوى مجموعةٍ من الأنسجة والعضلات

وتفاعلاتٍ كاذبةٍ لغرض تحفيز شهواتهم لا أكثر،أي إنَّ هناك انطفاء تام للمشاعر وقواعد الأخلاق لدينا مُعطّلة!

فقال سلطان مهما يكن فأنا أرى أي ممارسةٍ للجنس بعيدا عن الحب والروابط الروحية تبقى ناقصة وتندرج في لائحة الرذائل،فقالت له أنت مخطئ يا سيدي فالجنس ليس رذيلة لو تم بالتوافق والقبول بيد إنَّه يصبح رذيلةً لو نتج عنه إنجاب طفل حتى لو كان في إطار الزواج فكلاهما سيقحمان مخلوقا بريئا في مأساة الوجود وقسوته،وكل ذلك بسبب متعةٍ تافهةٍ لأحمقين تبادلا فيها سوائلهم الغريزية في لحظةٍ عابرة! فنحن لسنا ساقطات كما يتخيل الناس بل نحن نؤدي أدوارا هم من فرضها علينا فوجدنا أنفسنا نمارسها بالإكراه! وفجأة طُرقت الباب وإذا به موظف الاستقبال دخل عليهما ليبلغ سلطان عن انتهاء نصف الساعة ويجب عليه المغادرة.

مشتبه به

أنا لا أعرفكَ وبريءٌ من كل هذه الجنائز التي تحملها في وجهك،أتذكرُ أنَّك قبل يومٍ واحدٍ كنتَ طفلا طريّ الملامح ورقيق المشاعر والآن شارفتَ على الأربعين! فماذا فعلتَ لتستبدل سواد شعرك بحشيشٍ أبيض يثير شهوة أبقار الشيخوخة؟ وكيف سمحت لهذه التجاعيد أن تغزو هضبات وجهك فأصبحتَ عبوسا دميم؟ أعتذر...أظنُّ أنَّني أعرفك أو إنَّ فيك شيءٌ منّي لكنَّني أكره النظر إليك والتدقيق في تفاصيلك ولا أريد أن أصدّق ما يحدث في شكلك ونفسك من خراب ولو كان الأمر بيدي لفتحتُ دماغك وأطفأتُ جميع الذكريات المتعفنة فيه أو كان لدي سلطة عليك أو خيار لغيرت تاريخكَ ولغتكَ ودينكَ وحتى اسمكَ ومحطات عمرك فلِمَ أنت هكذا عاثر الحظ ومكدود القدّ في حياتك؟ كانتْ هذه الكلمات صلاتي اليومية واحتجاجي المستمر كلّما أشاهد وجهي في المرآة.

ذكريات مخيبة

كانتْ لحظاتُ ليله تمرُّ مثل سرب نملٍ يتقلب مرهقا على وقع أنغام مشوشة، وسجائره الكريهة جثثٌ يابسة تلتصق بين أصابعه وشفتيه،كان يرصفُ كتبه المدنفة على تلك الخشبة المصابة بالعجز ويتأملُ أغلفتها القديمة وعناوينها بعيون أرهقها السهر،وفي سرّه يتساءل كيف يمكن أن تتحول الأحداث التاريخية والوقائع البشرية إلى كلماتٍ كثيفةٍ وحروفٍ مُذنبةٍ محكوما عليها بالسجن الأبدي في كتابٍ مهجور؟ كيف يمكن أن تتجمد نيران الماضي كدهونٍ ثلاثية بين أضلاع المكتبات؟ أيعقل أنَّ جميع المواعيد والأوقات والمواسم والساعات والمشاهد والذكريات وكل تفاصيل الدهور تطّوى في رُزمٍ من الورق لتعفى في غبرات التراب؟ كانتْ هنيهاتُ ليله تتهوع أسئلةً وجوديةً،ويشعر أنَّ في أنفاسه تتصاعد أبخرة الملل! أراد أن يفعل أي شيءٍ يقلّل من حدة التوتر ويمتص تلك الطاقة السلبية التي تسكن في أعماقه ففتح أحد الكتب النائمة على تلك الخشبة وإذا به يتبسم ساخرا لأنَّه رأى لحظات الملل تتساقط مع صورة حبيبته الخائنة التي كان يحتفظ بها في كتابٍ معزول.

كرستين الكلدانية

لقد كان سلطان دائما ما يمارسُ متعةَ الفضولِ الممنوع،واعتادَ على اختلاسِ النظر المُحرّم من شقوق التاريخ ليجدَ نفسهُ يقشّرُ الطينَ اليابس من على وجه مدينته،وينفخُ غبارَ الأكاذيب المقدسةِ التي أصابتْ عيونَ الدهرِ بالرّمد! إنَّه الآن يتأهبُ لإعلانِ نبوءته في بابل ويكتبُ إنجيله الأخير ليكشفَ عما فعلته شياطين الصحراء بأسلافهِ ولغتهِ وسلالةِ امتدادهِ القديمة،إنَّه مازالَ يسمعُ الأصواتَ الكلدانية العتيقة تخرجُ من فتحاتِ الجدران ومن أفواهِ التماثيلِ والمعابدِ والقصورِ والزقّوراتِ والشوارعِ وحتى الترابِ والسرابِ والحجرِ وسطورِ الألواحِ المسماريةِ ومذابحِ الالهةِ المتروكةِ على أطلال بابل

لقد كان سلطان يحملُ في رأسهِ دماءَ أجدادهِ الكلدانيين وجراحاتهم الخالدة،ويرى ندامةَ مصارعهم حين تكاثرتْ على أجسادهم الخناجرُ ونسكتْ في رقابهم السيوف فما كان يملكُ إلا أن يجلسَ عند آثارهم ويرثيهم حُزنا ومرارةً،ويندبهم شوقا كلما أشرقتْ الشمسُ وغابتْ! فمنذ إن فُتحت سجلاتُ الماضي بين يديه،وانقشعتْ ظلمةُ الخديعةِ المتعفنةِ بخرائب

القرون،وهو يبحثُ في شغفٍ عن أي سبيلٍ يوصلهُ إلى مناهل أسلافه،ويفتّشُ ملهوفا عن أي نادرةٍ بابلية تحملُ في نجواها مِسكاً من أجداده أو رسماً كلدانيا منقوشا بملامحها تجعلهُ يسافرُ إلى تلك الوجوه التي عفا عليها غبارُ السنين! فهو برغم انغماسه البديع في غدائر الكتب والألواح التي تسقيه عن أخبارهم سلسبيلا عذبا،وبرغم زياراته المتكررة ونزوله الدائم في مدن بابل الأثرية إلا إنَّ عطشَ الخواطر وأنينَ النواظر يطرقان أبوابَ قلبه بفؤوس الحنين،وينتظرُ من يأتيه بشميمٍ من ذلك العهد البديع

إنَّه الآنَ في بابل النائمةِ على شفا انفجارٍ آتٍ على مزلاجٍ طائفيٍ أرسلته مسوخُ الصحراء العاسرة،ويحيا في أسوأ حقبةٍ تمرُّ في تاريخ العراق السقيم حيث كلابُ اللهِ المسعورةُ أسقطتْ ما يقاربُ أربع محافظات في شمال العراق ومازالَ الزحفُ مُتواصلا نحو الوسطِ والجنوبِ بمباركةٍ دنيئةٍ من دول الجوار والمتشددين من شذاذ الآفاق،كان سلطان في تلكَ الفترةِ يعملُ مذيعا بمحطةِ الراديو في بابل وقد تم اختياره مديرا لغرفةِ الأخبارِ والبرامجِ السياسيةِ وذلكَ بما يمتلكهُ من مؤهلاتٍ ومهاراتٍ إذاعيةٍ ساعدتهُ بالقيامِ بتلك المهام،كان يعيشُ مأساةَ بلادهِ هموما وحسرات،ويستنكرُ على عزرائيل وأعوانه بما يراه من عرباتِ الموتِ والصواريخِ والقنابلِ التي تلتهمُ الأجسادَ وتسرقُ الأعمارَ بلا محاسبٍ أو رقيب،فنحن في

العراق أصبحنا كألحانٍ جارسةٍ يعزفها اللهُ في المساءِ أغنياتٍ للحبِ وفي الصباحِ تطيحُ بنا كفوفُ الشيطانِ فنتساقطُ جثثا محترقةً على أكتاف الأرض! كان يرى القوافلَ الجنائزية تشقّ طريقها نحو مدينة القبور،ويتجرّع قصصَ الإخفاقِ والخسارةِ حين يرى صورَ الشهداءِ والقتلى قد ملأتْ بيوتَ بابل وشوارعها،فهو ما فتئ كل يوم يحشو صدره بالأحزان وتنهالُ من عيونه مآتم سومر وبقايا دموع مردوخ وكل آلهةِ بابل الحزينة

وفي ذلك اليومِ المفعمِ بنكهاتِ الضبابِ البارِدِ حيث الشمس تخلعُ ملابسها خلفَ السحابِ وتستحمُ بدخانِ الحربِ المتصاعدِ بالأرواحِ الزاكياتِ وبنفحاتِ البخورِ الجنوبي كان سلطان قد انتهى من قراءةِ النشرةِ الأخباريةِ وخرجَ من غرفةِ البث المباشر لكي يشرع بإعداد النشرة الأخبارية التالية وفور جلوسه وقع بصرهُ على فتاةٍ لم يكنْ قد رآها من قبل،جاءتْ تسيرُ بخطواتٍ واثقةٍ في ذلك الممرِ الضيقِ الذي يؤدي إلى قاعةِ الإدارة حيث سلطان وبعض موظفي الاذاعة

كانتْ حسناءً فاتنةً تتألقُ عيناها كزمردتين تلمعانِ بلونٍ بُنّي باهر،ويتناثرُ من خديها ترابٌ سحريٌ أسمر ما أن يراه أحد إلا وأغمض عينيه خجلا وإعجابا،ألقتْ التحيةَ وقالت بلهجةٍ موصليةٍ مليحةٍ يكادُ حرفُ الراءِ يضيعُ حلاوةً بين شفتيها أنا كريستين ولديّ موعدٌ لإجراء مقابلةٍ لغرض التوظيف،وقف

سلطان مرحبا بها وقد غمرهُ تأثير حضورها واستحسنَ عذوبةَ مظهرها،فقال لها بأناقةِ كلماته اجلسي هنا ريثما يأتي أحدهم للنظر في موضوعكِ،وما أن مرّتْ دقائقُ من الحوارات والمداولات مع تلك الزائرة البهية حتى تمّ تكليف سلطان بتدريبها على العمل الإذاعي وإعدادها مذيعة لتقديم الأخبار أو تكون ضمن كادر البرامج الصباحية

كان لقدوم كريستين بريقاً ملأ أجواء الإذاعة بالنورِ والحبورِ،وصار كلُ شيءٍ في ذلك المكانِ ينبضُ بالحيويةِ والحبِ كمثل الذي أُغلقتْ مسالكُ الدنيا في وجهه وفاجأتهُ النجومُ والمصادفاتُ بملاكٍ ظريف المؤالفة شهي القلب كالماءِ الدافقِ وصل الأراضي الميتة في داخله وأعاد إليها الحياة والخصوبة بعد إن كانتْ خرابا

وفي أحد الأيام بعد انتهاء الحصة التدريبية في غرفة تسجيل البرامج حيث كانا لوحدهما ولأولِ مرةٍ يتجرأ سلطان ويدخلُ منطقتها المحظورة بأسئلته الشخصية فقال لها أنا عرفتُ أنَّكِ من الموصل من خلال لهجتكِ السكرية وكلماتكِ المعسولةِ الوديعة ولكن لم أعرفْ من أي مدينةٍ أنتِ في الموصل؟ فقالت له أنا من (تلكيف) وقد جئنا بابل هاربين من الموت،إنَّهم هجّرونا من ديارنا يا أستاذ وطردونا من مدينتنا الجميلة!

انتبه مُتفاجئا من كلامها عندما قالت إنَّها من (تلكيف) كونه يعرف إنَّ تلك البلدةَ يسكنها الكلدانيون منذ مئات

السنين،وتُعتبر من أكبر معاقلهم ومأوى منازلهم وسكناهم،فشعر إنَّ أسماك قلبه بدأتْ تدورُ بتوتر فزاد خفقانه وتعاظم اهتمامه وصار يتكهنُ باستغراب وقال لها هل أنتِ كلدانية يا كريستين؟ فتبسمتْ وقالت نعم أنا كلدانية وقد جئنا إليكم نازحين من ديارنا

عندما سمع كلامها أحسَّ برعشةٍ باردةٍ لسعتْ أعصابه وضغطتْ مشاعره فنهض مندهشا مسرورا ونظر في عينيها كأنَّه ظفرَ بحلمٍ قضى نصفَ عمره يبحثُ عنه أو كالذي عثر على كنزه المفقود فقال لها مُحاولا الحفاظ على رباط جأشه أنتم لستم مشرّدين من دياركم يا سيدتي ولا يمكن أن تنطبقَ عليكم صفة النزوح والتهجير،أنتم أهل هذه البلاد وسكّان العراق الأصليون وما كان مجيئكم إلى بابل إلا حكاية رحّالٍ أتعبته أعصرُ السفر وسنواتُ الغياب وقد عاد الآن إلى دياره وموطنه بعد حنينٍ وعناء! يا كريستين إنَّ بابلَ مملكةُ الكلدانِ وفيها دولتهم العظيمة وها أنتِ الآن عدتِ إليها لأنَّكِ ملكتها المبجلة والوريثة الشرعية لمجدها العريق! فتبسمتْ خجلا وكأنَّ شيئا من كلامه وقع في قلبها

ومنذ ذلك الموقف صار سلطان يهتمُ فيها أكثر ويكترثُ لأمرها ويتعاملُ معها باحترامٍ بالغٍ ومحبةٍ فائضةٍ،فهو كان لا يملُّ من استثمار الوقت معها للحديث عن تاريخ الكلدان واستحضار مآثرهم،ولا يتوقفُ عن أسئلته المتواصلةِ عن

ثقافةِ وطبائع وسجايا كلدان هذا الزمن وطريقة عيشهم وحتى تقاليدهم وعاداتهم ويقارنها مع بيئته وأهله،فما وجد أدنى اختلافٍ أو تفاوت بل كان أعظمُ اكتشافٍ له إنَّ الكثيرَ من الألفاظِ والمفرداتِ الدارجةِ التي يتحدثُ فيها سكانُ وسط وجنوب العراق هي مفرداتٌ كلدانيةٌ أصيلة،وإنَّ لسانهم في الكلام وطريقة لفظ الحروف هي لكّنة كلدانية بحتة،فكانتْ معرفة كريستين بالنسبة لسلطان أثمن وأغلى وأرقى ما حدثَ معه طوال حياته،غير إنَّها كانتْ تجهلُ دوافعَ ذلك الاهتمام المُفرط الذي التمسته في تصرفاته وصارتْ تُخمّن إنَّ في سرائر تلك العلاقةِ شيئا من الغرام والإعجاب،أو أنَّه كان يخفي وراء أسلوبه غاياتٍ عاطفيةٍ ويطمحُ الوصول إلى قلبها بصورةٍ تكتيكية،وفي حقيقة الأمر لم تكنْ في قلبه أيُّ إشعاراتٍ غراميةٍ أو إشاراتٍ مبطنةٍ يضمرُ من ورائها غراما خجولا أو معاشقة المراهقين سوى أنَّه وجد في كريستين بقايا شراشر آبائه وتنشّق في رؤيتها أريج منابعه الكلدانية العميقة

كان يراها حمامةً جاءتْ إليه رسولا مُتعبا قاطعا محطاتِ الزمن،بل طائرا فينيقيا نهضَ من رماد التاريخ حاملا معه رسائلَ أهله التي أقبرتها القرون المظلمة! قالت له ذات مرة ما الذي يجعلك مُتيقّنا من إنَّ جذورك كلدانية،وإنَّك فرعٌ متصلٌ بدوحتهم الوارفة بعد كل تلك العصور ونكبات الدهور؟ فأجابها قائلا إنَّ من أسوأ الافتراءات في تاريخنا أنَّهم استبدلوا

قوميتنا الحضارية بأخرى بدوية استوردوها لنا من أساطير الصحراء ومؤتفكات اليمن،وأغبى ما حدثَ مع هؤلاء الناس إنَّهم صدّقوا تلك الأباطيل وتفاعلوا معها على أنَّها من تراثهم وحقيقتهم! أتعلمين يا كريستين أنَّه قبل غزو بدو الحجاز للعراق كان يسكنه قرابة ثمانية ملايين كلداني بالإضافة لوجود الآشوريين في المناطق الشمالية وجميعهم كانوا على الديانة المسيحية،حيث كان العراق من شماله حتى جنوبه كلدانيا وتوجد بعض العوائل البدوية الرُحّل الذين يأتون من البلدان المجاورة لغرض الرعي والعمل بالزراعة عند الكلدان لذلك كانوا يسمون الكلدان بالنبط،وقد دلّتْ المصادرُ التاريخيةُ الأصيلةُ على إنَّ الكلدانيين كانوا يمتلكون الآلاف من المقاطعات الزراعية وأراضيهم خصبة غنية بالمياه والأشجار المثمرة ويقتنون قطعان المواشي والخيول ومنهم من سكن الأهوار،وكانتْ تجارتهم مزدهرة وهم أسياد البحر بلا منازع،ولم يُعرف الخليج في زمانهم إلا باسمهم حيث كان يسمى ببحر الكلدان قبل أن يتحول بكل تبجحٍ وصفاقةٍ إلى خليجٍ عربي أو فارسي؟

أتعلمين إنَّ جميعَ الممالكِ والقبائل الكلدانية بأعدادها الكثيرة تحولتْ في عصر الملك نبوخذنصر الثاني إلى دولةٍ قويةٍ ومن ثم لامبراطوريةٍ واسعةٍ حكمتْ العالم ولكن من العجب العجاب في ليلةٍ وضحاها كل تلك القبائل والممالك والجيوش

والحضـارة والتـاريخ والامبراطوريـة تتبخـر وتضـيع بلمـح البصر وفجأة يصحوا العراق ليجد نفسه متحولا لعروبي بدوي لا يفقـه سـوى العصـبية والهمجيـة والتخلـف!؟ والله إن الأمـرَ مبيت وقد تربصوا به فسرقوا مجده واستبدلوه بظلامهم!

فقالت كريستين أنا توقفتُ عند كلمة سقطتْ من فمك وهي إنَّك ذكرت النبط فمن هؤلاء النبط وما علاقتهم بالكلدان؟ فقال إنَّ النبط هم الكلدانيون الذين كانوا يسكنون الأرياف والأهوار أي المزارعين،وسموا نبطا بما عرفوا بعلمهم في استنباط الماء والزرع حتى غدت أرضهم سوداء لكثرة ما يزرعون وهذا مصداقا لما قاله جدنا الأمام علي عندما قال (من كان سائلاً عن نسْبتنا،فإنا نبطٌ من كُوثى.وفي حادثة أخرى، عندما سأَله رجلٌ فقال: أَخبرني، يا أَمير المؤْمنين، عن أَصلكم،معاشر قُرَيْش، فقال نحن قومٌ من كوثى. ثم قال: وكوثى العراق هي سُرَّةُ السَّواد من مَحالِّ النَّبَطِ...)

فقالت وماذا حل بكلدان الوسط والجنوب ففي زمننا هذا نادرا ما تجد كلدانيا واحدا يسكنُ فيها هل تم قتل ثمانية مليون كلداني وجاء مكانهم بدو الحجاز؟تبسم سلطان ضاحكا وقال لم تكن هنالك إبادةٌ للشعوبِ الكلدانيةِ بشكلٍ كاملٍ بل تم تهجينهم وتزوير هويتهم وتغيير لغتهم ودينهم وكل تفاصيل حياتهم! فعند هجوم بدو الحجاز على العراق لم يدخلوا وهم يحملون الورود ولم يرفعوا رايات السلام بل كانوا زُمرا متوحشة تتخذ

من أدلوجيتها الدينية غطاءً وتبريرا في قتل الناس،فكانوا يُخيّرون الكلدان بثلاثة خيارات أما الدخول في دينهم أو الجزية أو القتال،وكان كلُ من يرفض الدخول بدينهم يقتلونه وتؤخذ أمواله وأرضه وتُسبى نساؤه وتُستعبد أطفاله وذراريه قالت كريستين ولماذا لم يقاتلهم الكلدان أليس من الواجب الدفاع والحماية لو حدث أي هجومٍ عسكريٍ غريب؟ فأجابها بحسرة قائلا كان العراق في تلك الفترة خاضعا للاحتلال الساساني الفارسي فلم يكن هناك جيشٌ رسميٌ وسيادي خاص بالكلدان،بالإضافةِ إنَّ الفرسَ المحتلين قد أنهكوا العراق بالقتل والسلب والظلم والاستبداد ولم يكونوا جادّين بالحفاظ عليه والدفاع عنه لذلك بمجرد دخول مليشيات البدو انسحبتْ الحاميـاتُ الفارسية وتركتْ الكلدان لوحدهم في الميدان يواجهون مصيرهم أمام تلك الوحوش المتغطرسة فكانوا لقمةً سائغةً ومجانيةً في كفوف أولئك المشوهين!

فقالت له وماذا حدثَ بعد ذلك وإلى أين رمتْ بهم الأقدار؟ قال عند وصول البدو بخيولهم وكتائبهم وأسلحتهم وآلهتهم وتوحشهم وجد الكلدان أنفسهم بلا جيش ولا أسلحة ولا تنظيم،فلم تكن هنالك مواجهاتٌ دفاعيةٌ بل انقسموا لثلاثة أقسام،الأول رحلَ مع الاحتلال الساساني وهم أصحابُ الأموالِ ورجالُ الدولةِ ومعاونينهم من الذين كانتْ سلطةُ الاحتلال تستفيد منهم،أما القسم الثاني هم الذين هربوا بعوائلهم

وأموالهم ودينهم إلى شمال العراق في جبال آشور وهؤلاء أجدادكِ أنتِ يا كريستين بقوا محافظين على كلدانيتهم إلى هذا اليوم،والقسم الأخير وهم الأكثرية الساحقة هم الذين رضخوا تحت حكم السيف وانصاعوا لظلم الغزاة وهم أجدادي أنا الذين اختاروا البقاء في أراضيهم ومدنهم محافظين على أعراضهم وأموالهم فآمنوا مكرهين لكنَّهم خسروا كل شيء دون ذلك!

نظرتْ كريستين في وجه السلطان وقد تلألأتْ عيناها بمسيرةٍ صامتةٍ من الدموعِ وسألته إذن كيف تم تغيير لغة العراق الكلدانية إلى لغة الحجازيين؟وهل فعلا تم التلاعب بأنساب الكلدان وتحويل تسميات قبائلهم إلى تسميات بدوية؟فقال سلطان نعم تم ذلك من خلال أبشع عملية تزييف وتزوير حصلت في تاريخ العراق وهي (تعريب الدواوين والموالاة) وقبل أن يشرحَ لها رنّ هاتفه الجوال بإشعارِ رسالةٍ نصيةٍ وبمجردِ أنَّه قرأ تلك الرسالة صرخَ عاليا وصارَ يبكي بالدموع وقال يا كريستين لقد أُستشهد أخي الآن في الموصل وخرجَ مسرعا من ذلك المكان

الزائرة البغيضة

بعدَ رحيلِ عصابة الخفافيش وقوافل السهر التي أحرقتها على مجمرةِ العزلة،كنتُ أظنُّ أنَّني قضيت تلك الليالي أعيش لوحدي ولم يشاركني أحدٌ في غرفتي الانفرادية،ولطالما غفوتُ تاركا قلبي يتجمد في خلوةٍ صوفيةٍ بعد إن أزلتُ قشور الحاجة للناس عن روحي وأفكاري،لكنَّني اكتشفتُ مؤخرا وجود شركاء فضوليين ورفقاء وقحين قد سكنوا معي دون إذن،بل كانوا يشاركونني وقتي وأغراضي وطعامي ويتدخلون في تفاصيل حياتي وهذا ما زاد من حنقي واستنكاري الشديد لأنَّهم عبثوا بمضمون قراراتي وأفسدوا محتوى عزلتي

كانت أول المتطفلين تلك النملة العجماء التي رأيتها تركض على المنضدة وهي تحمل حبّة سكرٍ سرقتها منِّي دون حياء،حاولتُ أن أوقفها وأعاقبها على سرقتها لكنَّني قلتُ في نفسي إنَّها مجرد نملة وحبّة سكر فلا تستوجب اندلاع حربٍ مفاجئة فتركتها تمضي بما سرقت

ذهبتْ ولم أكن مطمئنا لرؤيتها وشعرتُ أنَّها اقتحمتْ محراب وحدتي بنعليها،والأمر الآخر الذي انثال على هواجسي بالأوصاب والحذر هو إنَّ تلك النملة حتما لم تكن تعيش

لوحدها معي في الغرفة فماذا لو كان لديها ذرٌّ وأبناء عمومة أو عشيرة كبيرة؟ يا إلهي... كيف تعيش معي كل تلك المخلوقات وأنا مازلتُ أقاوم مصائب الاختلاط؟وكيف لم أدرك أنَّهم كانوا يسرقون من طعامي ويتخللون بين ملابسي ويركضون فوق أقدامي أو قد يشاهدونني حين أنام عاريا أو عندما أمارس أعمالي الممنوعة؟ فأسرعتُ مرعوبا صوب شقوق الجدران وصرتُ أفتش في جميع الفتحات والأغوار لعلّني أعثر على مستعمراتهم أو اهتدي لما يحدث في غرفتي دون علمي؟ فحاولتُ كثيرا غير إنَّني فشلتُ وما كان علي إلا أن أعود أدراجي وأجلس إزاء المنضدة

لم تمرُّ سوى ثوانٍ وإذا بي أرى جيوشا مضطربةً وحشودا متوترةً من النمل هجموا على علبة السكّر وهم يتسابقون على سرقة أكبر قدرٍ منها،وقفتُ مذهولا لا أعرف ماذا أفعل مع ذلك الغزو المباغت،فشعرتُ إنَّ في رأسي تتصادم قطاراتٌ تسير بلا سكك وفي تلك اللحظات رأيتُ نملةً قد انعزلتْ عن تلك الأسراب واتخذتْ مكانا مرتفعا كأنَّها تشرف على الهجوم وتقود قطعات الجنود فعرفتُ إنَّها كانتْ النملة الأولى التي سرقتني أولا! فهي قد أشعلتْ ثورتهم وأخبرتْ الجماهير عن مكان السكّر! فوقفتُ أمامها ولساني يتجرّح بسكاكين العتب وقلت لها لماذا كل هذا الاعتداء على خصوصياتي؟ولماذا داهمتموني وأنا مشغولٌ بالاعتكاف عن الناس والابتعاد عن

كل ما يزعجني ويرميني بالقلق فوجدتكم أسوأ من البشر،فلا عيش لي معكم بعد الآن أيها المعتدون! واعتزم على أن يعّلن الحرب فأمسك قارورة مبيد الحشرات وهمَّ أن يقذفهم من ذلك السم،لكنَّه لم يستطع فحبال ضميره كانتْ أقوى من كفوفه! وصرخاتُ إحساسه تحذرهُ من أن يصبح قاتلا للضعفاء فرمى قارورة السمّ من يده وخرج من الغرفة وهو يلعن تلك النملة البغيضة.

تسمّم عاطفي

كان في كلِ ليلةٍ يقفلُ جميعَ الأبوابِ،ويسدلُ الستائرَ على النوافذ والشبابيك،وينتبذُ من أهلهِ مكانا يمارس فيه طقوس غرامهِ الصوفي،فيُطفئ الأنوار ويغمضُ عينيه ويسافرُ متلهفا لعيون المحبوبة،يسافرُ وهو يحملُ في ذاكرتهِ صورها ونغمات صوتها وكل رسائلها،لم تكن المسافات البعيدة هي العائق الوحيد بينهما فقط...بل مراحل وأعمار متناقضة،لكنّهُ ماذا عساه أن يفعل؟ لقد بلغ من الشوق ما يحرق به كوكبا كاملا،وفاضت من روحهِ أمنياتٌ قد تغرق فيها الأرض! كان ذلك المتصوف يُصارع السهر بعزف سماوي يستفرغهُ من رأسهِ،ويتهجد بطقوسٍ يبدؤها بمواويل ريفية ويُنهيها بشجونٍ وعتاب،صار يُكلّم صورتها ويرسمُ على الجدران عيونها العسلية بعدها وضع رأسهُ في تنورٍ طينيٍ مُنطفئٍ وصرخ بكل ما يحملُ من حنين..أيكون الحب هكذا؟ أيفعل الغرام كل ذلك؟ كيف يمكن لصدري أن يحتضن المحبوب؟وهل سوف أبقى أسيرا في هذا العذاب إلى يوم القيامة؟حتى استيقظ كل من كان في المنزل فهرعوا إليه مسرعين،عندما رأوه على تلك الحالة قالوا له لماذا تصرخ هكذا لقد أفزعتَ الجميع؟ فلم يجد عذرا يخفي فيه ما كان يفعلهُ سوى إنه قال لهم: أنا كنتُ أصرخ لأنَّني أشعر بألم في أحشائي وذهب لغرفته صامتا.

حدث في الباص

ركبَ الباصَ الصغيرةَ ذات المقاعد المتقابلة والشبابيك التي أرطبها الرذاذ الخفيف وقد استقبلته رائحةُ جلود الكراسي الممزوجة بعطرٍ شتائيٍ بارد،جلس بجانب الشباك وقد أعطى ظهرهُ ناحية السائق وهو يرى جميع الركاب وقد امتلأتْ وجوههم بالتذمر والانزعاج بسبب تأخرهم وإصرار السائق على ألا يتحرك والباص فيها نقص في عدد الركاب،حاول أن يشغل عينيه ويهربُ من رؤية تلك الوجوه العابسة بالنظر إلى الشارع ويتأملُ حركة المارة من خلف زجاج الشباك المفتوح إلى المنتصف،وفي لحظةٍ سقطتْ من دائرة الوقت أغمض فيها عينيه وصار يشعرُ بهبوط الشمس وهي تودّع الأرض بأنفاسها الدافئة، ويسمعُ خفقان الغروب مُقبلا بأجنحته السوداء ليغطي المدينة بظلامه الناعم،وما إنَّ مرّتْ دقائقُ صامتة وإذا بالباص تحركتْ وقد أفزعه صوت ذلك السائق المأزوم،ففتح عينيه وإذا به يلمح فتاةً تجلس في آخر الباص تنظر إليه بشغفٍ وإعجابٍ وتشير له بحواجبها وشفتيها،فهو لا يعرف لماذا هي تفعل ذلك معه غير أنَّه كان يشعر بنظرات عينيها تسقي جذور قلبه فتخضرّ المشاعر بالحياة.

كانتْ تغازله بإشارات أصابعها فتأتي إلى عاطفته كنغمات قيثارةٍ بابليةٍ تهزّهُ عشقا وتقذفه إلى الفردوس،أراد أن يتسلل إلى أعماقها بعيونه فحدّق فيها بحب وهو يتفحص عينيها وشفتيها ويتخيل أنَّه يرسم قبلةً ضامئةً على وجنتيها ويمسكُ مروَدا هنديا ويخط كحلها من شذرات الليل،تبسمتْ تلك الفتاة وأرسلتْ له قبلةً في الهواء جعلتْ نبضاته تتسارع وكأنَّها سكبت الصبابة في سواقي جسده فأمسى يرتعش نشوةً حتى انتبه عليه كل من كان في تلك الباص

صار يحلم بزوال المسافة بينهما ويرغب بلمس كفيها ويتقربُ منها أكثر،إنَّه يريد أن يروي عطشه من عصير ثغرها ويملأ روحه من ثمار أنوثتها إلا إنَّ الموانع والظروف كانتْ تحيط بهما من كل جانب،وفي خلال ذلك صاحتْ تلك الفتاة بأعلى صوتها تطلب من السائق التوقف كونها وصلتْ إلى المكان الذي تريد،فنهضتْ من مكانها حتى وصلتْ بالقرب منه فودعته بعيونها ثم ضحكتْ بمكرٍ ورفعتْ في وجهه يدها اليسرى فرآها ترتدي خاتما ذهبيا يتلألأ في بنصرها لتخبره أنَّها متزوجة !

من يوميات رجل لاإنجابي

على مدى سنواتٍ متواترةٍ وفي مساء كل يوم كان يخرج ذلك الرجل الصموت قاصدا متنزه العاب الأطفال الخاص في منطقتنا،ويبقى يسترق النظر ويرسل الابتسامات الوديعة لكل طفلةٍ تحتفي بها عيونه أو يلاحظها عن طريق الصدفة،كان دائما ما يتخذ مكانا منعزلا في آخر الحديقة ويطيل البقاء هناك غير مبالٍ بوحوش الخسائر التي لم تشبعْ من استلاب عمره ويحافظ على ألا تعبر لحظةٌ واحدةٌ دون أن يستثمرها برؤية وجهٍ بريء أو يسمع ضحكةً طفوليةً من فتاةٍ صغيرةٍ
لقد تساقط بعضٌ من شعر ناصيته،ونبتتْ سنابل بيض في أفاريز لحيته وبدأتْ علاماتُ التقدم في العمر تغزو جسده وتقتحم خزائن قلبه حتى باتتْ غرائبه النفسية تطفو على ظلمات وجهه وتفضح ما يخفيه بداخله،فكانتْ أشجى حكايات وجعهِ وأعظم نكباته التي أفسدتْ سعود حياته هي متلازمة الشوق المرير لطفلته التي أقسم على ألا يلتقي بها أبدا! وبرغم حاجته الشديدة لوجودها غير أنَّه رفض أن يكون سببا بعذابها في هذا العالم المضطرب،لذلك يرى إنَّ من أسمى مراتب الوفاء وأرقى درجات الإخلاص هو ألا تكون واسطةً قاسيةً

تجبر طفلا عديم الإرادة بالدخول قسرا في معارك الحياة المُجحفة،أو تصبح أنانيا إلى حدّ القباحة بإحضار مخلوقٍ ضعيف ليكون نسخةً مكررةً منك لا أكثر،حينذاك وجد نفسه يتجرع سموم قراره ويكابد فراغات أحضانه بقبولٍ ورضا،وإنَّ قناعته بعدم الإنجاب لها قدسيةٌ سامقةٌ تصل إلى مرحلة النبوة!

وما كانتْ الغايةُ من ذهابه يوميا إلى تلك الحديقة إلا رغبةً منه بالحصول على إكسير يداوي فيه جراحات روحه ويهدّئ تلك الصرخات الهائجة في قفصه الصدري،وبرغم أنَّني أعرف شيئا عن قصته غير أنَّه قد شغلني أمره وصار الفضول يزعج أفكاري ويضطرني إلى التطفل والتحرّي عن أسرار ذلك الشاجن الحزين،فقررتُ أن أذهب لمتنزّه الألعاب القريب وقلت في نفسي لو عثرتُ عليه سأتجرأ بأسئلتي وأطّلع على نياته وخفاياه

كان جالسا على مصطبةٍ تحت الشجرة وحوله مجموعة أطفال يلعبون فأسرعت نحوه وجلست بجانبه دون استئذان،وما إن مرّتْ نصفُ دقيقة من الصمت وإذا به يلتفتُ إلي ويقول لي بنبرةٍ مواربةٍ هل أنت جادٌّ بما أنت آتٍ من أجله؟ أتريد أن تعرف القصة من حضوري إلى هذا المكان بشكلٍ يومي؟ فانتبهتُ وقد أصابني العجب وحسبته نبيا أو أحد الذين كُشف عنهم الحجاب وصاروا يقرؤون الأفكار،فقلتُ له صراحةً

واختصارا للحديث إنَّ لفي قلبي عليك لهفة وأعرف جيدا بما في داخلك من عذابٍ وأسى،فعيونك تنزف أمنياتٍ مذبوحة ومازلتَ تحترق شوقا لرؤية طفلتك التي لم تنجبها بعد! اغرورقتْ عيناه بالدموع وقال متحسرا نعم لقد قاربتْ الأربعين ولم أتزوج ولستُ نادما بل صرتُ أفتخر بعزوبيتي وأعتبر ذلك القرار من أسمى وأنبل ما وعدتُ به نفسي في الحياة سوى حاجةٍ واحدة سوف تقتلني صبرا،فقلت له وما هي؟ فقال مثلما قلت هي أن تكون لدي طفلة واحدة فقط يا أخي أنا مشتعلٌ بالحرمان والجّوى،وفي كل حينٍ تسحقني شياطين الفراق لذا أنت دائما ما تراني هنا أُبنّجُ عيوني بأفيونٍ كاذب،واسترضي خواطري برؤية الأطفال! فقلتُ ولماذا أنت في كل هذا البؤس؟فالحياة لم تتوقف حتى إن وصلت الأربعين فبإمكانك أن تتزوج وتنجب طفلتك التي أرهقك الحنين إليها؟ تبسم ساخرا وأجاب بانفعال وقال أتظنُّ أنَّني لم أفكّر فيما قلته منذ إن كنتُ في العشرين وإلى هذه اللحظة؟ إنَّ الأمر ليس بهذه الصورة ولا يمكن أن تجعله سهلا وبسيطا بحماقة كلماتك! فقلتُ أنَّكَ تجعلني في حيرةٍ من أمري فما الذي يمنعك إذن من الزواج والإنجاب في حين أرى جلّ حاجتك ومبتغاك هي طفلة دون أي أمنيةٍ أخرى؟

فأدار وجهه الناحية الأخرى وصار ينظر لطفلةٍ تلعب وتقفز وقال بصوتٍ خفيضٍ أنا مشكلتي مع الإنجاب أولا وليستْ مع

الزواج،ولنفترض تزوجتُ لغرض اجتلاب مخلوقٍ يجهل سبب الإتيان به وتوريطه بمأزق الوجود،أليس من الواجب والإنصاف هو أن أضع أمامه خيار الحرية بالرفض أو القبول،وهل يا ترى سيمنحني الموافقة على ما سوف يعانيه في حياته بسببي؟ فإذا كانت الحياة منحةً أو هديةً نُقدّمها لأولادنا فلماذا نسلبهم حق القبول بها أو الامتناع عنها ؟ يا صديقي إنَّ الحياة بحدّ ذاتها معاناة مفروضة ولا مناص من البؤس والأحزان والتعب والمصائب والأزمات والفقد والتعاسة والشدائد والفناء الحتمي! فمن الواجب الأخلاقي مع طفلتي المستقبلية هو أن أُبلّغها سلفا بأنَّني ليس لدي أي ضماناتٍ أو تعهدٍ بعدم وقوع الضرر عليها عند مشاركتها معي عثرات الزمن!

يا صديقي أنا جبانٌ لحدّ الإحباط من فكرة إقحام طفلةٍ ضعيفةٍ في عالمٍ مليءٍ بالحروب والمجازر،عالم مجنون بمواصلة القتال وسحق الشعوب والافتراس والإرهاب ومنقسم إلى ظالم ومظلوم! لا أريدها أن تاتي لتكون دميةً تُسلّيني ولأنسى بها خوفي ووحشتي وحقيقة ضعفي ثم أخلعها وأرميها في مستنقع الزواج! لا أريد أن أُقامر أو أُتاجر بحياة طفلٍ بريءٍ بهدف الحصول على خادمٍ مستقبليٍ كمثل الذي يبحثُ عن النجدة والدعم في الشيخوخة! ولا أستطيع حتى في التّصور أن أنجب وأنا مازلتُ عالقا في وساخة العالم الثالث بين براثن الفقر

والجوع وتحت أقدام العوز والبؤس والعسر والحرمان! فلا يمكنني وسط كل هذا أن أضمن لها حياة كريمة،فقاطعتَه ممتعضا ومترددا وقلتُ له لماذا أنت تعيسٌ لهذه الدرجة وقلبك محاط بثعابين وهمية وغالبا ما تتوقع الأسوأ؟ فالأرض جميلة والعيش وفير بالماء والغذاء ومثل ما يُقال يأتي الطفل ويأتي رزقه معه فعلام كل هذه المخاوف؟وصرتُ أمسك يده وأحاول بكلامي أن أوقد شمعةً في قلبه تطرد عنه هذا الظلام

فقال لي أنت موهومٌ جدا وضالٌ فيما تقول فلا يوجد دليلٌ واحدٌ يبرهن على إنَّ الطفل عندما يأتي تسقط معه حقيبة الرزق عند الولادة،وإن كنت لا تؤمن فيما أقول فاخرج الآن إلى الشارع وشاهد آلاف الأطفال المُشردين والمتسولين والكادحين والمرضى والمعاقين واليتامى والجائعين وحتى اللقطاء والتائهين كلهم ذنوب ارتكبها المجتمع ونتاجٌ لعينٌ للجهل المقدس،ولا يوجد في هذه المقولة تفضيلٌ للإنسان أو امتياز له على سائر المخلوقات والبهائم لأنَّه لا فرق بين طفلٍ قاصر وبين صغير الحمار ودرص الفأر في حاجتهم للرعاية والحماية وقت طفولتهم وكل هذا يقع على عاتق الأبوين وليس على أي جهة أخرى،وإلا ستكون نهايتهم أما الموت أو التشرد والتسوّل!

يا صديقي بسبب هذه المقولة تم إنجاب ملايين الأطفال في عشوائيات العالم،فلا رزقٌ يأتي ولا معاشٌ يكفي ولا موارد

مؤمّنة ولا كرامةٌ مصانة إلا ما رحم ربي! فأنا أشعر بالظلم لأنَّني موجود هنا،لأنَّني مازلتُ في كل لحظةٍ أخوض الصراعات والمعارك رغبةً في البقاء،وذلك لأنَّه لم يكن لدي القرار باختيار حياتي لكنَّني الآن لدي الخيار بألا أظلم أحد أو أجبر إنسانا على إدخاله في دائرة المتاعب والعناء

وبعدما أزعجني كلامه قلت له ألا تحب أن يبقى ذكرك ويحفظ أثرك بولدٍ يحمل اسمك على مدى الدهر؟ فضحك هازئً بما قلت وقال لي هذه أيضا فكرة تافهة وأردف مُتسائلا هل يمكنك أن تخبرني باسم جدك العاشر؟ فأربكني سؤاله وحاولتُ أن أتذكر أو أعرف اسم جدي العاشر لكنَّني عجزتُ عن ذلك،فضحك مرةً أخرى وقال يا لسوء حظ جدك المسكين أنَّه حتما كان يفكر مثلك ويحلم أن يُخلّد اسمه فلم تنفعه فكرة الإنجاب ليتذكره الناس بل صار شيئا لم يكن،فهو لم يدرك أنَّ التكاثر ما هو إلا هروب متنكر في زيّ الأبوة وردمٍ للفراغ المتكرر داخل النفس البشرية!

يا صديقي إنَّ في روحي إحساسا أهوجا يحبّب لي إنجاب طفلة جميلة لكنَّ في ضميري أصواتٌ تبكي وتمنعني وتحذرني وتُبين لي أنَّ الانجاب فعلٌ لا إخلاقي بل جريمةٌ مؤجلةٌ ومشروع موت سيقع على أحدهم بسبب نزواتي وفساد غريزتي! وفي تلك اللحظات انتبهتُ وإذا بالظّلام قد غشي المكان وتأخر الوقت فاستأذنته بالذهاب وغادرته وأنا في قمّة

الإحباط والقلق،وفور وصولي إلى البيت رنَّ هاتفي وإذا به أحد الأصدقاء يسألني هل إنَّني مجنونٌ أو أعاني من اضطرابٍ نفسي؟ فكان سؤاله غريبا ومستفزا فقلت له من المؤكد أنَّني سليم ولا أعاني من أي عارضٍ صحي،وأضفتُ ما الذي يجعلك تسال مثل هكذا سؤال؟ فقال لي أنَّه اليوم كان وعائلته في المُتنزّه ورأني جالسا لوحدي على تلك المصطبة الرخامية وأُكلّم نفسي بإعوال وانفعال،فأذهلني كلامه وأصابني بالصدمة وقلتُ له أمتاكد أنت بأنَّكَ رأيتني أكلّم نفسي وحيدا؟فأكّد وأقسم لي بأنَّه طوال الوقت كان يشاهدني أحكي مع نفسي وحيدا! فأغلقتُ الجوال في وجهه وعرفتُ بأنَّني لم التقِ بأي شخصٍ بذلك المُتنزّه وما كان ذلك المتشائم الحزين إلا أنا.

لعنات غرامية

بعدَ منتصفِ الشوق وعندَ هبوط عباءات البرد وقطرات المطر،كانتْ آياتُ الاشتياق تغلي في بطن كمانه المنتفخ بقصص سنواته العابرة،وتحت فراشه تتكسرُ مساميرُ الملل المتوهجة من محارق الذكريات،فهو في كل ليلةٍ يغرقُ في كأس لهفته لعيون أليفته المهاجرة،ويغوص جزعا بأعماق الليل باحثا عن أمله المفقود،ففي الظلام تستيقظُ الأقمار وتولد من الدياجير أعمار القصائد والأقلام والشموع والسجائر!

كان ذلك العاشقُ المتصوفُ يصارعُ السهر بعزفٍ سماوي يستفرغهُ من ثقوب رأسه،ويتهجد صلاةً يعزفها بترانيم كلدانيةً ويطلقها بخورا بابليا في وجه الأهوار،إنَّه يكلّم صورتها ويرسم على الجدران أجنحةً متكسرةً لينتهي به الوجدُّ إلى أن يشبك يديه حول عنقه ويحاول خنق نفسه جزعا بالحنين!

أيفعل الغرام كل هذا؟وكيف للقلب نسيان المحبوب عندما يكون للفراق والحظ العاثر أحكاما جبرية لا مناص منها؟ عاد ذلك العاشق بإطلاق سراح ألحانه وتحرير أبياته الشعرية في الهواء كأنَّها أكياس مملوءة بالبكاء تتطاير ثم تنفجر فوق رأسه!وصار في كل ليلة تتكرر هذه المشاهد معه دون أن يعرف متى ستكون النهاية!

الجار المتشدد

أتذكرُ عندما انتقلنا إلى بيتنا الجديد كان كلُ شيءٍ مدهش بالنسبة لي،الحديقة والأشجار الحوائط والشبابيك الغرف والسلالم وحتى رائحة المكان وألوان الأبواب،كنتُ أركضُ في ذلك الحوش بلا تفكير وأقفز جذلانا خلف دجاجات الجيران المتطفلات علينا ولا أعرف سبب تلك الطاقة الطفولية المشتعلة داخل جسدي، فبدأتُ أزرع الضحكات في الهواء وأتذوق من تلك الأجواء حلاوة السعادة،وفي تلك الليلة عندما أظلمتْ السماء وهجعتْ النفوس وسبتتْ العصافير على الأغصان وسافر كل من كان في ذلك الحي على مراكب النوم والسكينة،أتذكر عند الفجر قفزتُ مرتعبا والخوف يقّتلكُ في قلبي ويلسعه بفزعٍ مفاجئ على أثر صوت الأذان من الجامع المجاور ومن تلكً اللحظة وأنا أعاني من مرض السكر.

صلاة باطلة

حينَ صارتْ شمسُ مدينة هاريانا الهندية تلفُّ ثيابها استعدادا للرحيل،وتأهبتْ أجنحة الظلامِ الغفيرةِ لتغطي وجهَ الأرض بالسواد العظيم،وكأنَّ المساء ينزف بالغيوم ويتحسر بنسماتٍ حاملةٍ معها أغنيات الماضي،الأمر الذي استدعى قيام الكهنة بعقد اجتماعٍ سرّيٍ لمعالجة الملل وبالنهاية توصلوا لاختراعٍ عظيمٍ وهي صلاة جديدة تساعد المتضجورين على تجاوز مشاعرهم السيئة ويحصلون من خلالها على الحسنات خوفا من إعطاء الناس فرصةً لاكتشاف عقولهم.

زهايمر مغشوش

بدأ صراخُ تلك العجوز يقتحمُ الغُرف والممرات،واندفع تيارٌ من الذعر خنقَ فضاء البيت بشعورٍ مزعجٍ! استيقظ الجميع مرعوبين على أثر الزوبعة المفاجأة وركضوا صوب مكان جدتهم المصابة بالزهايمر،كانوا ينظرون إليها باستغراب ويتفحصون جوانبها وفراشها،كانوا يعتقدون أنَّ حشرةً سامةً أو حيوانا زاحفا حاول الاعتداء عليها في ذلك الليل الحالك،أو أنَّها سمعت زئير أسدٍ أو عواء ذئبٍ أو وعيدٍ من ملك الموت أصابها بهذا الجنون! فابنها الكبير يحاول أن يخفّف من روعها ويمتص صدمة ذلك الحدث بكلماتٍ تزرع الأمان في قلبها،أحضر لها قدح ماء وصار يسقيها على مهل وبعد مرور أكثر من نصف ساعةٍ من الإرباك والحيرة أخيرا اعترفتْ لهم على مضض قائلةً لقد تذكرتُ أنا في هذا اليوم كنتُ أرتدي ثياب الزفاف وأدخلوني لغرفتي بعدها اغتصبني أبوكم بوحشية وعنف! فقال لها ابنها الكبير لقد مضى على ليلة دخلتك أكثر من أربعين عاما يا أمي وإنَّ أبي الآن نائم في قبره.

طقوس دموية

في ذات ليلةٍ كنتُ أحلم كأنَّني في مدينة أور أيام عيد الأكيتو،أتذكرُ إنّني شعرتُ بالملل ففكرتُ بالخروج،وما إن خرجتُ حتى رأيتُ شيئا عجبا،كانتْ شوارع المدينة المقدسة تمتلأ بأفواجٍ من السيافين المتشددين،والأماكن تعجّ بمجاميع بشرية يغلبُ على أشكالهم التمظهر بلباس الدين،إنَّهم عراة وحالقوا الرؤوس يحملون سيوفا وسلاسل حديدية يسيرون على إيقاع الطبول ويشحنون أنفسهم بطاقةٍ جنونيةٍ من خلال ما يرددون من المراثي والأناشيد الحزينة،لا أعرفُ كيف يتصاعد في رؤوسهم ذلك الوسواس المقدس،ومن أين لهم كل تلك القدرة على جلد ذواتهم وتعذيب أجسادهم؟ فهم يضربون أنفسهم بالسلاسل ويدمون رؤوسهم بالسيوف! أما أنا مازلتُ خائفا فإنَّ في الخارج مسيرات اللطم وكراديس الحزن الجماعي تجعلني أعيش جحيما صوفيا،أرى مشاهد العذاب وأشباح الانتقام وامتلاء الشوارع بالدم،كأنَّني في فيلم رعبٍ أهون ما فيه هو أن تُصاب بمتلازمةِ الإحساس بالذنب والشعور بالفاجعة! فسمعتُ هاتفا يقول لقد مرّتْ السنون والقرون والناس هنا مازالوا عالقين في الماضي،فحاولتُ أن أهرب فركضتُ حتى مضى أربعون عاما في ذلك الحلم وإلى الآن لم أستيقظ.

عجوز مراهق

كنتُ أنزعجُ من زياراته المتكررة إلينا ومن أحاديثه المبتذلة عن فوائد الزواج ومتعة إحضار أنثى جميلة للفراش،لا أفهمُ لماذا أرى أنَّه يعتبر المرأة عاهرةً مقدسة أو كائنا مرغوبا يعطي أنواعا مختلفة من الخدمات الجنسية تحت غطاءٍ ديني يفوق بشبقه كل الأفلام الاباحية،حتى إنَّني صرتُ أحفظ تلك النصائح التي ثقب بها جمجمتي وسممّ بها أفكاري،وكلّما يحادثني يقول لي أنَّه يريد مصلحتي ويخاف على نصف ديني من الضياع! فقلتُ له إذا كان الزواج يقضي نصف الدين فالنصف الثاني المليء بالجوع والحرمان والعيش المرير كيف سيُقضى؟ وأضفتُ ممازحا له ماذا تقول لو تزوجتُ لمرتين هل سيكتمل ديني أو يصبح كاملا وساعتها سأكون في غنًى من قضاء أي شيء بعد ذلك؟ فقال نعم...هذا هو الفهم القويم والرأي السليم تزوج لمرتين وسيكفيك الربّ فتوكل عليه،انتبهتُ على أثر كلامه وقلتُ في نفسي أنا لم أتزوج بامرأة واحدة فكيف بالثانية؟ أردف ذلك الشيخ كلامه قائلا أنا سوف أكون أول المبادرين على صحة هذا القول وسأبدأ بتطبيق هذه الفكرة فخطب أختي الصغيرة زوجةً له ساعتها عرفتُ سبب زيارته المتكررة إلينا.

بعد منتصف الندم

كانتْ عيونها غارقةً بالنعاسِ وقد انسلخَ الجلدُ عن كفوفها من فرط الفرك وقضم الأسنان،مازالتْ تشعرُ بخيبة أملٍ دفينةٍ تستعرُ في بواطن قلبها وتتوجع بطاقةٍ سلبيةٍ تجهضُ عقارب صفراء في دماغها! بل باتت في كل ليلةٍ تكابدُ جحيمَ الندم وتتألم بحرائق الذنوب التي ارتكبتها غفلة،فهي لم تنل الغرام ولم تحصل على المنام،ولم تجد الفردوس الأرضية التي وعدوها بها،إنَّها لا تعرف من الذي أوصلها إلى هذا الهوان سوى ما تتذكر من توقيعٍ مرتعشٍ وبصمة إبهامٍ واضحةٍ تركتها في عقد الزواج.

إلى كلدانية

يا لونَ وجهكِ كيف صاغهُ بالمحاسن خالقهْ
يارب هل هذا الجمالُ صنعتَ مثلهُ سابقهْ
فرأيتُ حسنكِ وانجلى صوتٌ برأسي هاتفا
ما كنتُ أدري إنَّ في خديكِ تسكنُ محرقهْ
يا مشرقة
هل ذابتْ الشمسُ وضاعتْ في شفاهكِ زنبقهْ
أو على جفنيكِ جاء الفجرُ يهفو والغرامُ يرافقهْ
وجهٌ تصادم فوقهُ جيشٌ من الأقمار فانزلقتْ لقلبي
من ملامحها العَذوبةِ صاعقهْ
حتى إذا انكشف الحجاب
ورأيتُ بين رموشها برقا توهَّج في السّحابْ
وبصوتها خجلٌ عفيفٌ ساق إحساسي لخاصرة العذابْ
عذرا سيقتلني الغياب
وأنا البعيدُ بغير أجنحةٍ وأحلامي تموتُ بلا حساب
وعلى لسانِ العمرِ أسئلةٌ تكفّنها الندامةُ بالعتاب
جوعُ الربيع يحزُّ أعناق الأماني ثم يشتعلُ الشتاءْ
بما تطايرَ في خيالي من حنينٍ وارتقابْ
أين كنتِ قبل أن تجتاح روحي افتراءاتُ الخراب؟
أين كنتِ يا ملاكا عند أيام الشباب؟

أوتعلمين بأنَّني الآن كما الفلّاح يبكي
ظمأ الأنهارِ والأرض اليبابْ
وبوجهي زائراتٌ بيضُ يرسمْنَ على خديَّ ملحمةَ البكاءْ
كيف يمكنُ أن أعودَ إلى الوراء؟
لأقتفي أثرَ العصافير القديمة ثم ألقاكِ بأعشاش السماءْ
كيف أحتملُ البقاء؟
وأنتِ ما بين الكواكب ترقصين على فراقي
في الصباح وفي المساء
فتسيلُ من كفيكِ فاكهةٌ بلونِ قصائدي
حمراءُ تعصرها مراسيلُ الليالي في دروب الأنبياء
وكأنَّني آنستُ في عينيكِ نارا من حريقٍ شبَّ في أطمار بابلْ
ثم عادتْ فيكِ عشتارُ البعيدةُ مرةً أخرى تطوفُ على المنازلْ
وعلاماتٌ من التاريخِ في خديكِ ترسمها البلابلْ
وجمالٌ من ضوى الكلدان فيكِ
سلبَ الراحةَ منّي وارتقى فوق غرابيبي يقاتل
فلماذا هذه الأيام صار القلبُ ذابلْ؟
ولماذا صبرُ عاطفتي مقيدُ بالسلاسلْ؟
ألأنّي قد تعبتُ من عذابات التعثّر وحكايات المسافةْ؟
أو لأنّي منذ رؤيتها وقلبي لا أشدُّ على شغافه؟
تائهٌ أصبحتُ ما بين تلاقٍ وافتراقٍ
واحتراقٍ لغزالٍ جاء للدنيا بأحضان الرصافة

هل سمعتم بالطرافة؟
أنَّ كلدانيةً هربتْ من الفردوس واختبأتْ بقلبي
فتلظّى منذُ ذاكَ الحين بالحب وأنواع اللطافة
ومضى يبحثُ عنها بين أسمال الشوارع
لم أجد حبّا بذاك الحبّ غير الهجر والسهر وآلاف الموانع
كيف تقبلُني وتعزفُني هديلا في نواقيس الكنيسة
وأنا نذرٌ عتيقٌ لحمامات الجوامع؟
كيف ألقاها وفي الغرب تغازلها فراشاتُ المروجِ
وأنا في الشرق يخنقني اشتياقٌ وترافقني المواجع؟